مكتبة الأسرة

الثقافة العلمية

٢٠١٥

دفاع عن العلمِ

تأليف: ألبير باييه

تعريب: د. عثمان أمين

الهيئة المصرية العامة للكتاب

دفاع عن العلِم

مكتبة الأسرة ٢٠١٥

اللجنة العليا

فوزى فهمى رئيسًا
أحمد على عجيبة
أحمد زكريا الشلق
جرجس شكرى
جمال الغيطانى
خالد منتصر
خلف عبد العظيم الميرى
سيد حجاب
فاطمة المعدول
محمد بدوى
محمد شعير
محمد عنانى
مصطفى لبيب
نبيل عبد الفتاح
هالة خليل
هيثم الحاج على المشرف العام

الوزارات المشاركة:

وزارة الثقافة
وزارة التخطيط
وزارة السياحة

تصميم الغلاف
وليد طاهر

الإشراف الفنى
صبرى عبد الواحد
هشام متولى حامد

تنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب

دفاع عن العِلم

تأليف

ألبير بابيه

أستاذ الأخلاق والاجتماع بالسربون

تعريب

د. عثمان أمين

مدرس الفلسفة بجامعة فؤاد الأول

مكتبة الأسرة ٢٠١٥

بـاييه، ألبير

دفـاع عن العلم/ تـأليف : ألبير بـاييه؛ تعريب: د. عثمـان أمين .ـ

القـاهرة: الهيئة المصرية العامـة للكتـاب، ٢٠١٥.

١٦٠ ص، ٢٠سم .ـ (مكتبة الإسرة)

تدمك ٩ـ ٥٦٥ ـ ٩١٠ـ ٩٧٧ـ ٩٧٨

١ ـ العلوم ـ فلسفة.

أ ـ أمين، عثمـان (مترجم).

ب ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٣٢٠٢/٢٠١٥

I.S.B.N 978- 977- 910-565-9

ديوى ٥٠١

توطئة

الحقيقة المؤكدة التى تنطلق منها «مكتبة الأسرة»، هى أن تجليات الارتقاء فى الممارسات المجتمعية، تتحقق عندما ينشط النسق المعرفى والفكرى والثقافى للمجتمع ويتسع، بوصفه أهم الدوائر المؤثرة فى استمرار المجتمعات وتطورها واستقرارها، حتى لا يصبح المجتمع أسير أجوبة متخشبة جاهزة متوارثة فى مواجهة ضغوط احتياجاته، باجترار ثوابت معرفية تجاوزتها فتوحات الزمن المعرفى الراهن، بتنوعات إنجازاته المتجددة، فى حين أن رهانات المجتمع لتحقيق تجدده تتطلب ليس فقط أن يعرف المجتمع نفسه؛ بل أن يصنع نفسه، ويؤسس ذاته فى سياق إدراك دائم أن المجتمع لا يمكن أن يكون إلا بتحرير العقل العام، ليقرأ، ويتمعن، ويستوعب، ويدرك، ويعرف وتتحول مقروءاته، ومعارفه المستجدة إلى شبكة ممارسات يومية تسود كل مظاهر وآليات البنيات الاجتماعية والفردية وعلاقاتها، التى تواجه الصدوع اللامعقولة، وحالات التسلط المغلق التى تغلف وعى الناس بشطحات الارتداد والعزلة.

كما تستند «مكتبة الأسرة» إلى يقين أن إمكانات الإنسان أكثر ثراءً من الواقع، وأيضًا أن لا شىء يتأبد فى الحياة الاجتماعية، ليمنع العقل من بناء المعرفة الجديدة؛ إذ شحذ العقل باستخدامه الحر العام ـ بوصفه أداة الانتصار الإنسانى ـ يشكل إدراكا معرفيًا عماده القراءة، يحرر المجتمع من عطالته، ويفتح نوافذ التأمل التى تدفع المجتمع إلى رؤية أشد تحولاً، وتؤسس لتفعيل إرادته وتحرير مصيره، وتضعه إيجابيًا فى مواجهة صورة الوجود الحقيقى أمام الممكنات المفتوحة التى ينتجها التواصل، والحوار مع الآخر، واستيعاب الاكتشافات الجديدة؛ إذ غياب القراءة يمنع المجتمعات من تحولها المتواصل، وينفيها من التأسيس الفعلى لزمن اجتماعى، فالقراءة هى البداية الكبرى التى إن ظلت مغلقة يصاب المجتمع بالخرس والصمت، حيث فى غياب القراءة تتجلى علامات العجز عن إحداث شىء، استنادًا إلى أن الصمت عن القراءة يبقى

صاحبه خارج موضوع المعرفة، محجوبًا عن التكوين الذاتى، والفعل الاجتماعى، إذ المعارف المستجدة تجعل الفرد يتمكن من أن يكون ، وأن يفعل، وتؤسس مسيرة إدراك المجتمع لمصيره الآمن، بأن تثرى امتلاكه قدرة إيقاظ ينابيع تخيل صورة وجوده، وإمكانية تحقيقها تصويبًا للواقع.

إن «مكتبة الأسرة» تسعى إلى فك احتكار فعل القراءة بالانتشار المتشعب للكتاب، وتقريبه للناس حتى تتحقق جدارة اكتساب الجميع مشروعية المعرفة، ومشروعية الفهم وتداولهما، وذلك ما يشكل صميم جهد «مكتبة الأسرة» وتطلعه، تحقيقًا لحيوية مجتمعية تعقلن قبول التغيير باستباق الفهم، وتمارس التحرر من فكرة المعرفة المطلقة، التى تخلق حالات من حصر التفكير وانحصاره، نتيجة هيمنة أفكار مطلقة متسيدة، تؤدى إلى الانغلاق، وعدم الانفتاح على المستقبل.

لا شك أن ثمة تناقضًا بين الدعوة إلى القراءة، وغياب الكتاب عن متناول شرائح اجتماعية لا تسمح ظروفها الاقتصادية باقتنائه، وذلك ما شكل معضلة أصبحت المحك الموضوعي فى تحقيق الدعوة إلى القراءة على المستوى المجتمعى، وقد نجحت وزارة الثقافة عام ٢٠١٤ بتفعيل التكاتف المؤسسى، وذلك بتجاوز الأطر التقليدية، فى دعم «مكتبة الأسرة»، لتبدد التمايز فى ممارسة حق القراءة بالنشر المدعوم، الذى يحرر الكتاب من استحالة وصوله إلى شرائح المجتمع، وقد استجابت لهذا التكاتف المؤسسى فى دعم «مكتبة الأسرة»، كل من وزارة التربية والتعليم، ووزارة التخطيط، ووزارة السياحة، انطلاقًا من أن دعم حق اكتساب المعارف يخلق تغييرًا يلبى طموحات الأجيال الشابة الصاعدة والمجتمع بأسره، وهو ما ينعكس فكريًا وثقافيًا فى ممارسات المجتمع الحياتية.

رئيس اللجنة

فوزى فهمى

تصديرٌ

اختارتنى «الجامعة المصرية» سنة ١٩٣١ عضوًا ببعثتها لمواصلة دراسة الفلسفة فى جامعة باريس.

وفى سنة ١٩٣٢ كنت مشغولاً بإعداد شهادة و«الأخلاق والاجتماع»، وهى إحدى الشهادات التى تتألف منها درجة «ليسانس التعليم» بتلك الجامعة(١). وكان من حسن حظى وحظ زملائى فى

---

(١) نود أن نلاحظ هنا أن كلية الآداب بباريس تمنح الطلبة **نوعين من الليسانس** فى الآداب: **إحداهما** عامة، وتسمى «الليسانس الحرة» «La Licence libre»، وتتألف من أربع شهادات يختارها الطالب نفسه من بين مختلف الشهادات التى تمنحها الكلية (شرط عدم التعارض بينها)، **والأخرى** خاصة، وتسمى «ليسانس التعليم» La Licence d'enseignement أو «ليسانس الدولة»؛ وهى عبارة من أربع شهادات إجبارية، تتألف منها إحدى المجموعات الأربع المعروفة فى الكلية.
وغنى عن البيان أن «ليسانس التعليم» هى الدرجة العلمية التى تعترف بها الدولة الغربية ، وتعتبرها مؤهلة صاحبها للقيام بوظائف التعليم فى المدارس الثانوية، أما «الليسانس الحرة» فلقب لا أكثر، ولا تعطى حاملها أى حق قبل الدولة. وما قلناه عن «الليسانس» بنوعيها يقال أيضًا عن «الدكتوراه» الفرنسية؛ فهى كذلك على نوعين: «دكتوراه الجامعة» Doctorat de l'universitÁe و«دكتوراه الدولة» أو «دكتوراه الآداب» على الإطلاق "Doctorates Lettres . والدكتوراه الثانية هى المعتبرة، وهى تشتمل على رسالتين، ولابد أن تكون إحداهما عملاً علميًا ذا أصالة لا نزاع فيها.

ذلك الحين أن جاء الأستاذ «ألبير بابيه» إلى السربون ليحاضرنا فى العلم والأخلاق: فكنا نستمع وقتذاك إلى محاضرات فياضة بلغت الغاية فى العمق والنفاذ والإمتاع، وامتازت بأنها مع التزامها سبيل التجربة والواقع، تفتح دائماً أمام أنظارنا آفاقًا واسعة غير محدودة. والحق لقد كانت طريقة الأستاذ «باييه» فى التعليم طريقة سمحة حرة لا تعرف تزمتًا ولا ضيقًا ولا جمودًا: فكان هو نفسه يحث تلاميذه على أن يداوموا التفكير بأنفسهم، دون أن يتقيدوا برأى من الآراء ما لم يقم عليه دليل من العقل أو التجربة؛ وكثيرًا ما كان يتهلل وجهه بشرًا حين يرى الطلاب وقد أقبلوا عليه فى نهاية المحاضرة، ليناقشوه، أو ليوجهوا إليه الأسئلة والاعتراضات، أو ليطالبوه بزيادة فى الإيضاح والبيان.

ذهبتُ إليه ذات مرة مع بعض الزملاء عقب محاضرة له فى السربون، ودارت المناقشة بين الأستاذ وتلاميذه زمنًا طويلاً؛ ولبثت أنا صامتًا منصتًا لما يقال دون أن أقول شيئًا. فسألنى الأستاذ إن كان لدىّ اعتراض فقلت له: «ليس لدىّ اليوم من ذلك شىء». فلما سألنى عن السبب قلت: «إنك ياسيدى محاضر ساحر. فأمهلنى إلى الأسبوع القادم لعلى أكون قد أفقت من سحرك!». فضحك الأستاذ وقال: «إن كان الأمر كذلك فإنى معينك على أن تفيق... إن مقصدى أن أصل معكم إلى الحقيقة. ولكم علىَّ منذ الأسبوع القادم أن أعرض عليكم قبل المحاضرة ملخصًا لها فى صورة قضايا رياضية جافة وموجزة. ويخيل إلىَّ أن صورتها تلك ستدعوكم إلي محاول نقضها أو تجريحها». وكذلك فعل الأستاذ

بعد؛ فكنا نلقاه عقب كل محاضرة لتوجيه ما يعن لنا من أسئلة، أو للإدلاء بما يعرض لنا من صعوبات؛ وكان هو يجيب دائماً على أسئلتنا أو اعتراضاتنا برحابة صدر وابتهاج.

وقد أثمرت هذه الطريقة أحسن الثمرات: علمتنا دروسًا حية فى التواضع والحرية والسماحة، وبثت فينا شيئًا من خصال الشك والنقد والإنصاف، وكلها صفات لازمة لقيام «الروح الفلسفى» أو «الروح العلمى» الذى هو الرسالة الأصيلة لكل جامعة تريد أن تقوم بواجبها على الوجه السليم.

ولم تنقطع صلتى بالأستاذ «بابيه» بعد حصولى على الليسانس ودبلوم الدراسات العالية، ولا أثناء اشتغالى بإعداد «الأجرجاسيون» ورسالتى الدكتوراه، بل كنت دائمًا شديد الحرص على الاستماع لمحاضراته وأحاديثه داخل السربون أو خارجها. ولقد ذهبتُ إليه يومًا وفى يدى نسخة من كتابه "La Morale de la Science" (وهو هذا الكتاب الذى أنشره بعنوان «دفاع عن العلم») وقلت له إن لى على الكتاب بعض الملاحظات. فابتسم كعادته، وقال: «هات ما عندك». فقلت: «إنى أعترض أولاً على العنوان: فإن فيه التباسًا يظهر على الخصوص إذا ترجم الكتاب إلى لغة أجنبية». فوافقنى الأستاذ، ووعد أن يغير العنوان فى الطبعة التالية(١). ثم وجهت اعتراضات أخرى إلى صميم الموضوع، وتناقشنا فيها، فاقتنعت

(١) لم تظهر طبعة أخرى للكتاب إلى اليوم. وقد رأيت أن يكون «دفاع عن العلم» عنواناً له بالعربية، لأنه أدل على الموضوع وأبعد عن الالتباس من العنوان الأصلى: «أخلاق العالم».

ببعض حججه دون بعضها الآخر. وساقنى الحديث إلى أن أطلب منه الإذن بنقل الكتاب إلى اللغة العربية، فأذن لى عن طيب خاطر. وشرعت فى الترجمة سنة ١٩٣٦، ولكن حال دون إتمامها انشغالى بالأجر جاسيون والدكتوراه.

وعدت إلى مصر سنة ١٩٣٩، فعهد إلىَّ بتدريس تاريخ الفلسفة بجامعة فؤاد الأول، وشغلت من جديد بدراسة «الرواقيين» و«ديكارت» و«سپينوزا» و«هيوم» و«كانت» و«محمد عبده» و«ف. ك. س. شلر»... فوفقنى الله إلى إنشاء سلسلة «أعلام الفلسفة» ونشرتُ عن بعض هذه الشخصيات كتابًا وبحوثًا عربية وفرنسية. ونسيت كتاب أستاذى «باييه» حتى كان العام الماضى، إذ طالعتنى الأنباء بعودة الأستاذ إلى نشاطه العلمى بعد بلائه الوطنى فى حركة تحرير فرنسا، فعاودنى الشوق إلى إنجاز ما كنت شرعت فيه. واقترنت هذه الرغبة الخاصة برغبة عامة كانت تلح علىَّ وقتًا طويلاً لنقل تراث الغرب الفلسفى إلى أبناء الشرق العربى، فكان لى شرف القيام بإنشاء سلسلة: «نفائس الفلسفة الغربية»، التى يسعدنى أن يكون كتاب: «دفاع عن العلم»، أول ما أقدمه منها إلى قراء العربية.

ولقد عدتُ إلى الترجمة فأكملتها، وكتبت إلى الأستاذ المؤلف أستأذنه من جديد فى نشر تلك الترجمة، فتفضل مرة أخرى بإرسال ذلك الإذن، مع مقدمة كتبها خاصة لهذه الطبعة العربية. وقد رأيت أن أنشر خطاب الإذن والمقدمة بنصهما الفرنسى، مع ترجمة عربية لهما.

وإنى لأحمد الله الذى هيأ لى أن أعرف الأستاذ «ألبير باييه» معرفة شخصية، وأن أحظى بالاستماع إلى محاضراته الممتازة فى السربون وفى غير السربون من المعاهد والجماعات العلمية الباريسية. ولا يسعنى إلا أن أكرر له الشكر الوافر على الثقة الغالية التى وضعها فى شخصى حين أذن لى بترجمة هذا الكتاب الجميل الفتان.

القاهرة: فى أكتوبر ١٩٤٦

عثمان أمين

خطاب الأستاذ بابيه
إلى المترجم

Le 10 nov. 45.

Cher Amine,

Je vous envoiece que vous m'avez demande: une courte notice sur moi - meme, et une preface nouvelle pour la Morale de la science.

Je serai tres heureux que ce Livre soit traduit en arabe, car vous szvez ma vieille amitie pour le monde arabe, et je serai doublement heureux que le traducteur soit vous. je garde toujours l'espoir de pouvoir aller en Egypte, mais, en ce moment, on est ecrase de besogne.

Croyez, cher ami, a mon affectueux devouement.

Albert Bayet.

١٠ نوفمبر ١٩٤٥

عزيزى أمين

أبعث إليك بما طلبت منى: كلمة موجزة فى سيرتى، ومقدمة جديدة «لأخلاق العلم». وإنى لأكون سعيداً جداً بأن يترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية، فإنك تعلم ما تنطوى عليه نفسى من صداقة قديمة للعالم العربى. ويسعدنى مرة أخرى أن يكون المترجم هو أنت. وإنى مازالت دائم الأمل فى أن أتمكن من الذهاب إلى مصر. ولكنا فى هذه الآونة مثقلون بالمشاغل والأعباء.

وثق أيها الصديق العزيز بما أحفظه لك فى قلبى من الود والوفاء.

ألبير بابيه

كلمة للمعرب

عن الأستاذ

ألبير بابيه (ALBERT BAYET)

ولد «ألبير بابيه» فى مدينة ليون بفرنسا سنة ١٨٨٠: والتحق بمدرسة المعلمين العالية بباريس سنة ١٨٩٨؛ وفى السنوات الأولى للقرن العشرين أنضم إلى «المدرسة الاجتماعية الفرنسية» التى كان يشرف عليها الأستاذ «إميل دوركايم» Emile Durkheim العالم الاجتماعى المشهور وفرغ الأستاذ بابيه للبحوث المتصلة بعلم الاجتماع التشريعى وعلم الاجتماع الأخلاقى؛ وتدل على هذا المنحى مؤلفاته الأولى: «الأخلاق العلمية» "la Morale scientifique" ، «وفكرة الخير» "l'Idee de bien".

ووقعت حرب سنة ١٩١٤، فعاقت الأستاذ عن إكمال كتابه الكبير عن «الانتحار والأخلاق» الذى يعدّ ظهوره حادثًا خطيرًا فى تاريخ علم الاجتماع: إذ أدخل فيه مؤلفه مناهج جديدة كل الجدة فى مجال الاجتماع الأخلاقى، وقلب أغلب ما كان الباحثون السابقون يتلقونه بالتسليم من آراء عن الأصل فى استنكار الانتحار والأصل فيما يوقع عليه من عقوبة.

وبعد هذا بقليل نشر المؤلف كتابًا فى «علم الوقائع الأخلاقية» "la science des faits moraux" حدد فيه ما رأى أن يوصى الباحثين باتباعه من مناهج البحث، وبين أن واجب علم الاجتماع الأخلاقى أن لا يقصر بحثه على الوقائع القانونية والمذاهب الفلسفية، بل ينبغى أن يدرس الوقائع اللغوية والوقائع الأدبية أيضًا.

وشرع الأستاذ بعدئذ فى نشر مؤلف له كبير عن «تاريخ الأخلاق فى فرنسا» "L' Histoire de la Morale en France"؛ وقد ظهر منه مجلدان قبل الحرب الأخيرة، أولهما فى «أخلاق الغاليين» "La Morale des Gaulois"، والثانى فى «الأخلاق الغالية الرومانية» «La Morale gallo - romaine".

وفى هذه الفترة نفسها نشر الأستاذ بابيه بحثًا عن «مذاهب الأخلاق فى الإنجيل» "Les Morales de l'evangile"، وكتابًا عنوانه: «ما المذهب العقلى؟» "QU' est - ce que le Rationalisme?" ونشر أخيرًا كتاب «دفاع عن العلم» الذى نقدمه اليوم إلى قراء العربية.

***

ولقد اشتغل الأستاذ بابيه منذ سنة ١٩٣٢ بتدريس علم الأخلاق فى السربون، ومضى فى أداء مهامه الجامعية، يحاضر ويؤلف ويشرف على بحوث تلاميذه فى «مدرسة الدراسات العالية» وغيرها. ولقد كنا من بين من أسعدهم الحظ بتلقى العلم على هذا

العالم المشرق والمحاضر المتدفق وقد انتفعنا بدروسه القيمة فى السربون، وقراءة بحوثه الجذابة فى الصحف والمجلات الفرنسية.

ولم يطب للأستاذ بايبه، على الرغم من نشاطه العلمى الخصب، أن يأوى إلى برج من العاج، أو يعتزل شئون السياسة، بل رأينا له منذ كنا فى فرنسا قبل الحرب الأخيرة نشاطًا ملحوظًا: رأيناه يناضل النازية والفاشية نضالاً دائبًا، كما تولى رياسة «عصبة حقوق الإنسان» "La Ligue des Droits de l'Homme"، و«عصبة التعليم» "La ligue de l'enseignement"، و«الاتحاد العقلى» "L'union Rationaliste"، و«اتحاد المفكرين المناوئين للفاشية» "L'union des intellectuels anti - fasciste".

ولما كانت سنة ١٩٤٠ عزلته حكومة فيشى من عمله فى السربون. فانضم أثناء الاحتلال الألمانى إلى حركة المقاومة «فران تيرور» "Franc - tireur"، وأصبح رئيسًا «لاتحاد الصحافة السرية»، فاتخذ العدة بصفته هذه، وبالاتفاق مع ممثلى حكومة الجنرال دوجول، لظهور صحف فرنسية جديدة، لكى تحل محل الصحف المأجورة لهلتر وبيتان، ومن المعروف أن هذه الصحف الجديدة قد ظهرت فعلا إبان التمرد الوطنى وأن الأعداد الأولى منها بيعت فى نفس المعركة حول «الحواجز الباريسية "Les barricades parisiennes"

وفى فترة الصراع السرى نشر الأستاذ بابيه كتابًا صغيرًا عنوانه: «بيتان والطابور الخامس» "petain et al cinquieme colonne"

بين فيه أن فرنسا سنة ١٩٤٠ لم تهزم من الناحية العسكرية، وإنما سلمتها إلى العدو عصابة من الخونة أرادت أن ينتصر هتلر.

وفى سنة ١٩٤٥ اختير الأستاذ باييه عضوًا فى «الجمعية الاستشارية» مندوبًا عن حركة «المقاومة».

ولما أصبح الأستاذ رئيسًا «للاتحاد الوطنى للصحافة الفرنسية» "Federation narionale de la presse francaise" لم يشأ أن يتقدم إلى الانتخابات العامة، ليتسنى له أن يفرغ إلى تعليمه فى السربون، وإلى بحوثه فى علم الاجتماع. وقد علمنا أنه سينشر فى القريب كتابًا كبيرًا فى علم الاجتماع عنوانه «الأخلاق واللغة».

***

ولعل ما يميز بحوث الأستاذ باييه هو اتجاه جهوده إلى تحديد فرع خاص من فروع العلم الاجتماعى، وهو العلم الخاص المنصب على الوقائع الأخلاقية، أو كما يسميه الأستاذ باييه علم «الإيثولوچيا» Ethologie(١) وهو يعنى بهذا دراسة القواعد والأحكام الأخلاقية دراسة وصفية تفسيرية محضة، وبمعزل عن كل محاولة لمناقشتها أو تبريرها، بل مع الاقتصار على دراستها كما تكشف عنها الصيغ واللغات والقوانين والعادات والآداب بصرف النظر عن كل ما يمكن أن ينسب إلى الفرد فى أصلها ونشوئها.

---

(١) لفظ «الايثولوجيا» Ethologie لفظ لا يخلو من التباس ،فقد يبدو أنه إنما جعل منذ «جون ستوارت ميل» خاصًا بعلم السمات أو الصفات التى يتصف بها الفرد أو الجماعة.

ولقد أعطى الأستاذ نفسه أمثلة لهذا النوع من المباحث فى كتاب مستفيض شائق عن: «الانتحار» وفى كتابه عن: «علم الوقائع الأخلاقية».

AVANT _ PROPOS

Ce liver a été rédigé avant la derniêre, guerre tl tend à démontrer que la Science n'est nullement rsponsable des inventions meurtreérs que les hommes tirent de ses dcouvertes,et qu'les hommes tirent de ses decouvertes, qu' il sur un grand nombre de Problémes essentiels, Pourrait faire l'unite des hommes.

La question qne je traitaias il y a une dizaine d'annees est encore devenue plus brulante au lendemain de la derniere guerre. La lutte menee par les Democraties contre l'effroyable regression fasciste a produit un grand nombre d'armes nouvelles. Elle a suscite notamment cette "bombe atomique qui, des ses debuts, a permis des destructions inouies et qui, si on la perfectionnait, mettrait en peril l'exisence meme de l'Humanite.

Bien entendu, les peuples, justement enus par cet effroyable peril,s en prennent a la Science. lls la rendent re-

sponsable des deuils et des ruines que l'invention nouvelle a deja suscites, de ceux qu'elle Pourrait susciter demain.

Je Crois qu'ily a la une erreur totale et grave. La science, comme j'ai essayé de le démontrer dans cette étude, est uniquement, exclusivement, un effort de connaissance. Elle tend a nous faire connaitre de facon toujours precise la realitè, a dègager des faits et des lois positives.

Oeuvre purement intellectuelle et qui ne se propose pas d'autre fin que le progres illimite de l'esprit humain.

Malheureusement, ces dècouvertes, dont le nombre, dequis un siecle s'accroit magnifiquement, surgissent dans des societes qui ne sont pas des societes de sages: d'ou il resulte qu'on les utilise tantot pour le bien, tantot pour le mal.

Le biologiste decouvre - til l'action d'une substance sur le corps humain? Le medcin s'en sert pour guerir, L'empoisonneur s'en sert pour tuer.

Le physicien decouvre -til les lois sur lesquelles reposent le cinema, la T S F? les uns s'en servent Pour propa-

ger la verite et la beaute, les autres pour propager le mensonge et la sottise.

II en va de meme pour la bombe atomique. Des savants illustres, a la tete desquels se trouve le francais Joliot Curie, decouvrent le moyen de capter lenergie intra - atomique ; les nus s'en servent pour fabriquer des engings de meurtre et de ruine; d'autres, demain, peuvent s'en servir pour elever merveilleusement le niveau de vie des hommes.

Ce n'est donc pas la science qui est coupable : ce sont ceux qui l'utilisent pour des fins injustes.

II y a pius : non seulement la science n'est pas coupable, mais elle porte en elle un ideal, une morale, qui, si nous savions les suivre, nous apporterait noblesse et bonheur.

La science, c'e st ce que J'essaie de demontrer dans ce livre, imploque l'idee que fait l'essentielle dignite de l'homme, c'est l'idee que la Liberte de la pensee; elle implique l'idee que la Liberte est la condi- tion necessaire de tous les progres; elle implique enfin l'idee que l'union des

coeurs peut, et par consequent doit se faire dans l'accepta-tion commune des verites demontrees et des methodes qui rendent cette demonstration possible.

Dignite de l'esprit, liberte, union: tel est donc le triple mot d'ordre de La morale de la science. Si l'humanite les ecoutait, c'en serit fait des guerres, c'en serait fait des in-egalites sociales et de l'exploitaion de l'homme; c'en ser-ait fait de la misere; c'en serait fait de la misere ; c'en ser-ait fait de toutes les contraintes qui oppriment la vie des peuples et la vie des individus.

Alors, la question se pose : allons _ nous continuer a nous servir de la Science contre la Science? Allons _ uous, au Contraire, Preter, l'oreille A l'enseigement moral qu' elle implique et qu'elle nous propose?

Plus que Jamais il nous faut choisir.

Le monde vient detre secoue et ensanglante par la plus effroyable crise qu'ait connue l'histoire des hommes. A peune sorti de la tourmente, il cherche en tatonnant le moyen de prevenir un nouveau desastre, et il se rend compte que, pour affermir la paix, pour organiser la Col-

laboration internationale, il faut trouver des principes moraux acceptables pour tous les hommes. ces. principes, a qui les demander? Chacun se tourne d'instinct vers sa Philosophie, ves Sa religion, vers sa morale. Mais ces philosophies, ces religion, ces morales, valables en un lieu du monde, sont Combattues ou ignorees en d'autres. ici, C'est le congucianisme, la l'Islam. La sagesse de l'inde n'est pas celle de l'occident La science, au cantraire, a ce Privilege qu'elle est partout la meme pour tous et qu'on ne concoit meme pas une geometrie catholique distinvte de la physique amercaine, une biologie francaise distincte de la biologige arabe. Sans Contrainte, Sans aucun recours a la raison et l'experience fait en tous lieux l'union Spontqnee des esprits. On a verse des fiols de Sang pour La Croix ou pour le loi de Newton, la relative, le Quqntisme ou la mecanique ondulatoire. alors ponrquoi ceux qui communient dans n meme erspect des verites etabliesu par la science ne communieraient - its pas dans un meme erspect des principes moraux dont la science est nee et qu'elle implqiue?

Cette Communion Possible est, je crois, la grande es-

perance du monde. si elle ne se realise pas, les hommes vont vers des catastophes pires que toutes celles qui les ont eprouves dans le passe. Si elle se realise, nous pouvont des a present utiliser les ressources inouies dont la Science nous a rendus maitres pour supprimer a jamais la misere, faire que l'aisance, au lieu d'etre le privilege de quelques - uns, soit le partage de tous, reduire infiniment les contraintes qui npus asservissent et diriger tous les hommes vers les activites les plus hautes et les plus nobles.

C'est avec l'espoir de contribuer a cette grande victoire que je dedie le livre qu'on va lire a tous les hommes de bonne volonte.

Albert Bayet

مقدمة خاصة للطبعة العربية

بقلم المؤلف

ألفت هذا الكتاب قبل الحرب الأخيرة، وقصدت فيه إلى أن أبين أن العلم ليس بمسئول مطلقًا عن المخترعات الفتاكة التى يستخلصها الناس من كشوفه، وأن أثبت خلافًا للرأى الشائع، أن «للعلم» «أخلاقًا» قد تستطيع أن تجمع شمل الناس حول عدد غير قليل من المشكلات الخطيرة.

بحثتُ هذه المسألة منذ أكثر من عشر سنوات. وهاهى ذى تعود غداة الحرب الأخيرة أشد إلحاحًا مما كانت من قبل: فقد أنتج الصراع الذى شنه أنصار الديموقراطية على الرجعة الفاشية المروعة كثيرًا من الأسلحة الجديدة، لاسيما «القنبلة الذرية» تلك التى استطاعت فى باكورتها أن تحدث من التخريب ما لم يسمع به من قبل، والتى إذا قدر لها الإتقان، قد تعرض وجود الإنسانية نفسها لخطر عظيم.

من الأمور الطبيعية أن ترتاع الشعوب لهذا الخطر المفزع، فتصب جام غضبها على العلم، وتحمله مسئولية ما نتج عن

الاختراع الجديد، ومسئولية ما قد ينجم عنه فى المستقبل من قتل ودمار.

أعتقد أن هذا خطأ كبير. وقد حاولت أن أبين فى هذا البحث أن العلم ما هو إلا مجهود للمعرفة فحسب، وأن مقصده أن يعيننا على أن نعرف الواقع معرفة دقيقة دائمًا، وعلى أن نستخلص الوقائع والقوانين الوضعية. فمهمته مهمة عقلية محضة، وليس له مقصد إلا تقدم الذهن الإنسانى تقدمًا غير محدود.

ولكن مما يؤسف له أن هذه الكشوف التى يزيد عددها منذ قرن من الزمان زيادة رائعة إنما بزغت فى مجتمعات ليست مجتمعات حكماء، فنتج عن ذلك أنها استخدمت تارة للخير وتارة للشر.

قد يستكشف البيولوجى أثر مادة ما على بدن الإنسان، فيستخدم الطبيب ذلك الأثر فى العلاج، ويستخدمه المجرم فى القتل. وقد يستكشف عالم الطبيعة القوانين التى تقوم عليها السينما والراديو، فيستخدمها بعض الناس لإذاعة الحق والجمال، ويستخدمها البعض الآخر لنشر الأكاذيب والقبائح.

وكذلك القنبلة الذرية: فقد قام جلة من العلماء، وعلى رأسهم العالم الفرنساوى «چوليو كورى»، بكشف وسيلة يستحوذون بها على الطاقة الكامنة فى الذرة، فاستخدمها بعض الناس لصنع معدات القتل والدمار، وقد يستخدمها آخرون غدًا لرفع مستوى حياة الناس إلى منزلة باهرة.

وإذن فليس العلم هو الآثم، وإنما يحمل العالم في نفسه مثلاً أعلى، ومذهبًا أخلاقيًا لو اهتدينا إلى اتباعهما لأوتينا نبلاً وسعادة.

وقد حاولت أن أبين في هذا الكتاب أن العلم متضمن لثلاث فكرات: الأولى أن إقدام الفكر وجرأته الفاتحة هما صميم الكرامة الإنسانية. والثانية أن الحرية هي الشرط الضروري لكل رقي. والثالثة أن من الممكن، بل من الواجب أن يتم ائتلاف العقول والقلوب إذا قبل الناس الحقائق التي أثبتها البرهان، وقبلوا المناهج التي تمكن من إقامة ذلك البرهان.

وإذن فكرامة الذهن والحرية وائتلاف البشر، هي كلمات السر الثلاث لأخلاق العلم. ولو أنصتت الإنسانية لها لذهبت الحروب والمظالم الاجتماعية واستغلال الإنسان للإنسان، ولقضي على عهد البؤس، ولانتهت جميع ضروب الطغيان الذي يرهق حياة الشعوب وحياة الأفراد.

ومن أجل هذا وجب أن نتساءل: أنمضي في استخدام العلم لمحاربة العلم؟ أم ننصت إلى ما ينطوي عليه وما يقدمه إلينا من هداية أخلاقية؟

وينبغي علينا أن نختار الآن أكثر من أي وقت مضى: فقد اهتزت أرجاء العالم، ولطخ بالدم أديمه في أزمة هي أشد ماعرف تاريخ الإنسانية هولاً. وما كاد يزايل كربته هذه حتى أخذ يتلمس السبيل لدرء كارثة جديدة، وهو عارف أنه لا بد، لتثبيت السلام الدائم وتنظيم التعاون بين الأمم، من الاهتداء إلى مبادئ أخلاقية يقبلها الناس جميعًا. فإلى من تطلب هذه المبادئ؟

يتجه كل إنسان بغريزته إلى فلسفته «الخاصة»، وإلى دينه «الخاص». وإلى مذهبه «الخاص» فى الأخلاق. ولكن هذه الفلسفات وهذه الأديان وهذه الأخلاق إذا وجدت قبولاً فى مكان مامن العالم فهى واجدة مناوأة أو إعراضا فى أماكن أخرى: تكون الغلبة للمسيحية هنا، وللإسلام أو للبوذية أو للكنفوشيوسية هناك؛ وليست حكمة الهند حكمة الغرب. أما العلم فله ميزة انفرد بها، وهى أنه واحد فى كل مكان وعند جميع الناس؛ وما يدور بخلد أحد أن تكون هناك هندسة كاثوليكية متميزة من الهندسة الإسلامية، ولا علم طبيعة روسى مخالف لعلم الطبيعة الأمريكانى، ولا بيولوجيا فرنسية مستقلة عن البيولوجيا العربية. والبرهان القائم على العقل والتجربة هو الذى يخلق الوحدة والائتلاف بين النفوس، عفوًا ودون إكراه أو التجاء إلى القوة أو السلطة. ولقد أهدرت الدماء أنهارًا من أجل «الصليب» أو من أجل «الهلال»، ولكن لم تهدر قطرة دم واحدة من أجل نظرية فيثاغورس، أو من أجل قانون نيوتن، أو قانون النسبية، أو نظرية «الكوانتا» أو الميكانيكا التموجية. وإذن فلم لا يكون المتآخون فى احترام الحقائق التى محصها العلم، إخوانًا متحابين فى احترام المبادئ الأخلاقية التى نشأ العلم منها واشتمل عليها؟

أعتقد أن هذه الإخوة الممكنة هى معقد رجاء العالم: فإن لم تتحقق سار الناس إلى كوارث أنكى من جميع ما دهاهم فيما مضى؛ وإن تحققت استطعنا منذ اليوم أن نستخدم ما ذلل العلم من موارد عجيبة، لنقضى قضاءً باتًا على البؤس، ولنجعل رغد العيش أمرًا ميسورًا لجميع الناس، لا ميزة لبعض المجدودين،

ولنخضد شوكة الطغيان الذى يستذلنا ولنوجه جميع الناس إلى أرفع ضروب النشاط وأنبلها.

ولما كان مأمولى أن أعاون الساعين لتحقيق هذا النصر العظيم، فإنى أهدى هذا الكتاب إلى جميع العاملين المخلصين.

باريس ١٠ نوفمبر سنة ١٩٤٥

ألبير باييه

الفصل الأول

أخلاق العلم

ما عسى أن يكون للعلم من أثر فى مجال الأخلاق؟ وماعسانا أن ننتظر منه فى هداية سلوك المجتمعات والأفراد فى الحياة النفسية التى يخلون فيها إلى ضمائرهم؟

يقول بعض الناس: لا شىء فالعلم مناوئ للأخلاق، مفسد فى الأرض، إذ يزيد قوانا على سفك الدماء ويجعل الإنسان عبدًا للآلة، ويزود البغضاء والشره والحماقة بسلاح خطر. فلا ينبغى أن نرجو منه أن يسنّ لنا أدب السلوك، بل الأولى أن نفرضه عليه.

ويترفق البعض الآخر، فلا يتهمون العلم، بل يخطبون وده، وقد يطلبون إليه عن طيب خاطر دقائق فنية فى تدبير صحة البدن أو شيئًا من التفصيلات عن التنظيم الاجتماعى. ولكنهم ينكرون عليه الحق فى وضع القواعد أو رسم المثل العليا؛ لأن العلم بطبيعة تكوينه يقرر ولا يحكم: فهو لا ينافى الأخلاق immorale، بل لا يبالى بالأخلاق amorale وما قيمة هذين الاعتراضين؟

أود قبل بحث هذه المسألة أن أشير إلى أن الاعتراضين خلافًا للظاهر يؤذيان العلم على حد سواء. يبدو لأول وهلة أن الضير الذى يقع على العلم ممن يتهمونه ويظهرون له العداء أبلغ مما يقع عليه ممن يرونه خارج دائرة الأخلاق وقد يمهدون له سبيلاً حسنًا لأداء مهمة ثانوية ليست بذات خطر، ولكن أليس فى إعطائنا للعلم نصيبًا ضئيلاً فى الأخلاق إزراء به لا يقل خطرًا عن إبعاده عن الأخلاق؟ فما أضأل شأن العلم إذا تركناه يقدم لنا خلسة شيئًا من المعلومات على الهامش، أو بعض التعليقات والحواشى فى أسفل الصفحة!

إن الأخلاق بمعناها الصحيح، ليست دفترًا تقيد فيه النصائح والإرشادات العملية، وإنما هى تعبير عن مثل أعلى، مثل أعلى أعنى شيئًا يستولى على الإنسان كله، ويرفعه بالتجرد عن الذات فوق نفسه؛ شيئًا يبعث فينا يقينًا وحماسة، وينشط الذهن والقلب جميعًا، ويجعل لحياتنا قيمة، ويضفى عليها جمالاً.

ولقد كانت جلائل الأعمال فى جميع الأزمان ثمرة لتقديس المثل الأعلى، وبه وحده يحق لنا الرجاء فى أن ننطلق من هذه المادية الأخلاقية، ومن هذا الإسفاف والتفاهة التى تتردى فيها الجماعات المعاصرة كل يوم أمام أعيننا. فلو تصورنا الحياة وقد خلت من هذه اللهيب لما أضحت بقية الأخلاق إلا حكمة هزيلة باهتة، هى أشبه بأن تكون توفيقًا بين مصالح، وصناعة أو فنًا للأنانية، فى حين أن أضأل عمل من أعمالنا اليومية يصبح له معناه إذا كان صدى لشىء

عظيم نؤمن به ونحبه. فإذا أنكرنا على العلم حقه فى إعطائنا مثلا أعلى، وانتقصنا من مهمته فجعلناها أمرًا ثانويًا، نكون فى الحقيقة قد منعناه من أن يؤثر أثرًا جديًا عميقًا على أسمى ما فى المصير الإنسانى، وما يبث الروح فى الهيئات والحياة فى الضمائر، ونكون كمن يمسكون به على عتبة الهيكل قائلين له: «لن تدخل»!

***

أيحق لنا أن نقول له ذلك؟ أيحق لنا أن ننحيه وننصرف عنه كأنه مناوئ للأخلاق أو كأنه شىء لا شأن له بالأخلاق؟ وما حجتنا فى القول بأن الأديان والفلسفات تستطيع أن تبث الحياة فى نفوس الهيئات والجماعات، وأن العلم يعجز عن ذلك؟ وكيف يسوغ لنا أن نزعم أن أمثال هذه المخترعات الرائعة التى يكاد يقصر عنها الوهم، والتى تغير أمام بصرنا صورة الكون، هى أشياء لا أثر لها فى الحقائق العميقة، حقائق الحياة الباطنة، ولا فى الشعر والعواطف، ولا فى الحركات الكبيرة التى توجه سير العالم؟

أما أنا فلا أستطيع أن أسلم بهذا الحل اليائس الذى يفتح لما سبل التقدم فى مجال المعرفة ولكنه يغلقها فى مجال الأخلاق وما أكثر ما يلزمنا من أدلة لكى نسلم بفكرة إخفاق كهذا! ولست أرى فى هذه المعارضة التى يحاول بعض الناس توجيهها إلى العلم إلا آخر جهد تبذله قوى الماضى لمكافحة قوى الحاضر، وإن كنت لا أنكر ما ينطوى عليه هذا الجهد من حسن النية. لقد نظرت السلطات المطمئنة إلى فتوحات البحث العلمى، تلك الفتوحات التى

لم تكن لتخطر من قبل على قلب بشر فأخذها الفزع. ولما رأت السهول وقد غزاها العلم أرادت على الأقل أن تحافظ على المرتفعات. وهذا شبيه بما تحدثنا عنه أغانينا فى القرون الوسطى: ما يكاد البارون يحس هجومًا حتى يتخلى عن المدينة، ويعتصم بالقلعة.

ولكن هاهى ذى ثلاثة قرون قد سلخها العلم دون أن يقف أحد فى سبيله. إن العلم بطبيعته غزو، والنتائج التى يحققها هى جوابه على من ينكرون عليه إمكانياته. فبعد أن رأينا العلم يبلغ فى الفضاء ما كان يبدو بعيد المنال، كيف يحل لنا أن نعتقد أنه سيقف أعزل من كل سلاح على عتبة العالم الأخلاقى، اللهم إلا أن تقع كارثة اجتماعية أو سكتة مفاجئة فى الحضارة الغربية، فتفل من غر به وتحطم وتبته!

قد يقال إن الاعتراضين الكبيرين اللذين أشرت إليهما فيما سبق باقيان مع ذلك. وأظن أننا نستطيع أن ننقض الاعتراض الأول أما الاعتراض الثانى فأخطر منه وقد استوقفنى كثيرًا؛ ولكنى أرى اليوم أننا نستطيع أن ننقضه. وكيف يكون ذلك؟ بمخالفة الطريقة التقليدية فى وضع المشكلة: أصر الناس إصرارًا عنيدًا على أن يطلبوا إلى علم الأخلاق مثلاً أعلى، وأنا أقول بل يجب أن يطلبوه إلى أخلاق العلم.

الفَصلُ الثانِى

هل العلم مناوئ للأخلاق؟

الاعتراض الأول: العلم منافٍ للأخلاق

يبدو - مع الأسف - أن من أيسر الأمور أن يوجه إلى العلم هذا المأخذ. قد يحلو للخطباء الرسميين أن يرددوا فى كل مكان أن العلم يكافح المرض والموت، وييسر إيجاد الثراء، ويعين الفكر على الذيوع. ولكن هذه الأقوال كلها تذهب أدراج الرياح وما نكاد ننصت إلى هذه العبارات «الجاهزة» وتأنس لها نفوسنا حتى نجد الوقائع هى أيضا تتكلم، ولغتها شديدة جافة أحيانًا.

بالأمس ذهب خمسة عشر مليونًا من الرجال ضحية للحرب. فمن الذى سلح الشعوب لتفعل أفاعيل الفتك هذه؟ العلم، بالعلم رأينا السكك الحديدية والسيارات تقذف فى لمح البصر كتلاً بشرية على حقول القتال. وبه رأينا المصانع - وهى دائمًا على أحسن أهبة - تضاعف إنتاجها من المدافع والذخائر، وبواسطته انتظمت القاذفات المهلكة، وحلقت الطائرات فوق الجيوش والمدن؛ والعالم حين يقف ثابتًا أمام الجثث والأشلاء ولا يحرك ساكنًا إزاء التشويهات والجراح يبدو للناس أطوع الخدام للقتل والدمار.

أغلطه يوم هى أم انحراف ساعة؟ كلا. إن مما يؤسف له أنه ما كاد يتم توقيع الهدنة وردم القبور حتى رأينا المعامل تشتغل بأقصى ما فى طاقتها. ولأى شىء؟ أ القتل روح الحرب؟ كلا. وإنما هى فى شغل لكى تكون الحرب المقبلة أشد فتكًا! بل إننا نرى اليوم باحثين يقبلون على مهمتهم وعلى وجوههم سيما الجد والدءوب والإصرار، حتى ليخيل إلى من يشاهد هذه الحماسة الرائعة أنهم قد انقطعوا لمشروع كبير فيه منفعة للناس. فإن دخلنا وجدناهم يبحثون عن الغاز الذى يحمل أضمن موت فى أوسع مدى. وإذا ظفرت جهودهم بالنجاح فإننا سنرى فى الغد أن قتل الناس بعضهم بعضًا لن يكون مقتصرًا على المحاربين. وسنودع تلك الجمل التى رددها القدماء فى تجنيب الضعيف ويلات الحرب cui bella parcunt وسنشهد إزهاق الأرواح بين الشيوخ والنساء والأطفال، وستمحق الحياة فى المدن وفى القرى، حتى يستطيع الناس أن يقولوا فى العلم ما قيل فى الفارس الذى يتحدث عنه سفر الرؤيا: «إن اسمه هو الموت»!

فإذا قيل إن الحرب على الرغم من ذلك كله أمر شاذ، وإن زمان السلم يبقى مبرءًا من ويلاتها، نهضت الوقائع من جديد لتفنيد هذا الرأى: فهذه الآلات التى تزيدها جهود المهندسين كل يوم إبداعًا، هل قدمت إلى مجتمعاتنا حياة السعة والاطمئنان التى وعدونا باسمها؟ إن فى وضع السؤال سخرية قاسية: فالعمل فى المصانع، ذلك العمل الذى لا يكاد يترك للعامل وقتًا للتنفس، يحدث فى هذه اللحظة نفسها البؤس والبطالة. وقد يخطر لمن ينظر فى حال بعض العمال أن يتساءل أيهما عبد للآخر: الآلة عبد للإنسان أن الإنسان هو الذى أصبح شيئًا فشيئًا عبدًا للآلة!

صحيح أن فريقًا من الناس فى عصر الاستعباد القديم قد قُضى عليهم أن ينفقوا حياتهم محبوسين فى المنجم لا يخرجون منه، أو مقيدين بطاحون لا يستطيعون منه فكاكًا. لكن أولئك كانوا بالأمس قلة: أما اليوم فإن شعبًا بأسره يقدم، ساعة بعد ساعة، ضحية للمعبود الجديد.

و«تعقيل» الصناعة ratioalisation ، الذى هو ثمرة منطق قاسٍ جاف، يقضى على صانع الأمس بمصير شبيه بمصير الآلة التى لا إرادة لها.

كان ينبغى بل كان من الممكن أن تكون الصحافة والسينما والراديو موطن حياة عقلية وحياة انطلاق . ولكنا نرى الصحافة تتخلى عن خدمة الفكرة لخدمة المال. لقد زار «أناتول فرانس» ذات يوم مطبعة كبيرة، فحيى «هذه الحروف الرصاصية الصغيرة المقدسة التى ستحمل العدالة والحق فى أرجاء العالم». وا أسفاه! إن الحروف الرصاصية على وجه العموم تحمل الكذب والغباء وروح البغضاء وروح الحرب وكل هذه المادية الكثيفة التى تخنق أنفاس العالم. ولقد سارت السينما والراديو على هذه السنة، فسخرتا من الفكر ومن الفن، وأصبحتا للناس مدرسة لنشر الغفلة والحماقة!

صحيح أن من الممكن أن نتفادى رؤية هذه الوقائع وجهًا لوجه. ولكن من حين إلى حين ترتفع أصوات الاستنكار فتنبهنا إلى الحق: إن نصف العالم، ويمثله «غاندى» و«تاجور» يوجه الاتهام إلى

النصف الآخر. أفنتظاهر بأننا لا نسمع؟ إن هذه المدينة الناشئة من العلم، والتى نزهو بها كل الزهو، هى فى رأى غاندى «العصر الأسود عصر الظلمات»! والآلة التى نريد أن نجعل منها إله الخلاص يراها هو «الصنم البشع»! وكل حياتنا الصاخبة، نحن معشر الغربيين، ليست إلا هيجانًا مثيرًا للضحك، وليس من شأنه إلا أن يصرفنا عن العمل الباقى الصحيح. و«تاجور» وإن كان أكثر اعتدالاً من «غاندى» يحمل على العلم حملة أشد فيقول: «إن الحياة القائمة على العلم تحلو لبعض الناس؛ لأن لها كل صفات الرياضة البدنية: تتظاهر بالجد ولكنها خلو من العمق، وهى لا تحسب حسابًا للطبيعة الإنسانية العالية».

أعتقد أن من العسير على من يقرأ دون تحيز هذه الأقوال لحكيمى الهند أن لا يحس باضطراب عميق: فإن أحدًا لا ينكر آخر الأمر أن الرجلين من أعلام الحياة الروحية. قد يُعترض عليهما أنهما نظرا إلينا من الخارج، فتجاوزا فى حكمهما حد الاعتدال، وأن لهما آراء سابقة فى «برابرة أوروبا» العظماء.

والجواب أن صوتًا قد ارتفع من أوروبا نفسها مؤيدًا لهما. لا يخطر ببال أحد أن أكبر علماء الطبيعة المحدثين يتكلم عن العلم الذى جددته عبقريته وفى نفسه ذرة من تحامل. ولكنّا نجد مع ذلك أن «أينشتين» لا يقل قسوة عن «غاندى» فى حكمه على العلم إذ يقول: «لم يُستخدم العلم حتى اليوم إلا فى خلق العبيد: ففى زمن الحرب يستخدم فى تسميمنا وتشويهنا؛ وفى زمن السلم

يجعل حياتنا قلقة منهوكة مرهقة. كنا ننتظر أن يستعين الناس بالعلوم فى الانصراف إلى الأعمال العقلية، فينالوا بذلك أكبر حظ من الحرية؛ ولكن بدلاً من ذلك صيرتهم العلوم عبيداً للآلة إن السواد الأعظم من العمال ينفقون نهارهم الطويل الرتيب الخالى من البهجة وهم فى أشد حالات المضض والتبرم، ولا يمنعهم ذلك من الارتعاد خوفًا على مرتباتهم الضئيلة»! ويمضى «أينشتين» فى حملته على العلوم فيقول: «أعمال جديرة باللعنات».

لنسلم بأن فى كلام أينشتين غلوًا، وأنه إنما شدد النكير على العلم؛ لأنه كان قد أسرف فى الإيمان به؛ فهى مرارة وحفيظة محب مخدوع. ولنسلم أيضًا، لكى نكون منصفين، أنه لا بد أن نقبل شيئًا مما يرد فى الخطب الرسمية التى تشيد بما للمعرفة العملية من حسنات ومناقب: إذا كان العلم يقتل فهو ينجى أحيانًا، وإذا كان يسلح الأحقاد، فهو يسلّح أحيانًا إرادة الاتحاد، وإذا كان يرضى الغرائز المنحطة الشريرة فقد يتفق له أن يخدم أغراضًا نبيلة لطيفة. ولكنا حتى لو ذهبنا إلى افتراض جرىء فقلنا إن بعض الحسنات قد تعوض عن بعض السيئات، لكان ذلك إقرارًا بالهزيمة وأى هزيمة؟ فليس أشد منافاة للأخلاق بالمعنى الدقيق من أن يكون العلم قادرًا على الخير فيعمل للشر، وأن يعرف أنه قوة من قوى الحياة فينقلب قوة من قوى الموت.

كلا. لن يحظى العلم بالغفران من أجل الحسنات التى يقدمها إلينا: لأن أكبر ما يقع فيه من شناعة هو استطاعته أن يُعين على

العدالة والمحبة، وشعوره بالقدرة على ذلك، ثم عدوله فى برود عما بدأه من تلك المهمة لكى يخدم القسوة والشراهة والحماقة. وقد نلتمس ـ إذا اقتضى الأمر ـ بعض العذر لقوة لا شأن لها بالأخلاق وليس لديها فكرة ما عن الخير ولا عن الشر. ولكن كيف نبرئ علمًا لديه فكرة عن الخير ويخدمه أحيانًا، ولكنه ينقلب عليه فجأة ويشرع فى العمل للموت وللألم والعبودية؟ أليس فى مثل هذه الصفاقة السافرة ما يدعو أولئك الذين يضعون العدالة وطيبة القلب فوق كل شىء إلى أن يأخذوا بما ذهب إليه «پسكال» من أن العلوم ليست «من شأن الإنسان»، وأن الإنسان يضل عن سبيله إذا وقف عليها أكثر مما يضل إذا جهلها؟

***

هذا هو الاعتراض. وإنى أختصر الاتهام، وبودى أن لا أكون قد أوهنته: لأنه إذا كان الأمر لا يعدو الوقائع المذكورة فإنى أشعر باتفاق عميق مع أولئك الذين ذكروها: فأنا أكره مثلهم آثار الحرب والموت هذه التى تجهّز فى ظل معامل الاختبار العلمى؛ ولكنى لاأستطيع أن أفكر بدون اشمئزاز فى هذه «الحضارة التى تُنسب إلى العلم، والتى تَقصر مطامعنا على الظفر بالخيرات المادية وعلى اكتساب وسائل الراحة الرتيبة والترف الغليظ الخالى من الابتداع. كلا إنا لسنا فحسب منتجين ومستهلكين، قد كتب علينا ـ ولا فضل لنا ـ أن نصنع وأن نشترى وهذا النوع من الهمجية التى تهدد أوروبا القديمة متخفية وراء ستار العلم يبدو لى فى وخامة عواقبه

كالهمجية التى قوضت فى القرن الخامس العلم الرومانى القديم. فلو كان العلم ـ كما يعتقد غاندى وكما يبدو أنه رأى أينشتين ـ مسئولاً عن جميع الآثام التى تُقترف باسمه لوجب بغضه هع الاستمرار فى الإعجاب به. ولكن هل العلم مسئول عن ذلك؟

كلا. هذه الآثام حق لا ريب فيه. ولكن مهما يكن رأى رجال ضللهم قلب كريم، فالعلم ليس مقترف هذه الآثام. والذى يوقع بعض الناس فى الخطأ هو أنهم فى الغالب يخلطون بين العلم فى نفسه وبين التطبيقات المستفادة من العلم. فرجل الشارع لا يفهم من العلم إلا السكك الحديدية والطائرات والتلغراف والتلفون والآلات على اختلاف أشكالها. واللغة والعادات تسوق إلى هذا الخلط سوقًا شديدًا، حتى يجوز الخلط على العالم نفسه أحيانًا، فيتكلم ويحكم وكأن العلم هو ذلك كله حقاً. ولكن العلم لحسن حظه وحظنا شىء آخر غير ذلك: إنه البحث عن الوقائع والقوانين بحثًا بريئاً.

إننى لا أقول هذا هنا دفاعًا عن القضية: فإن التمييز بين جهة النظر وجهة العمل فى المعرفة والفن هو أول ما ينظر فيه البحث العلمى، وهو شرطه وقانونه. ومهمة الباحث سواء فى علم الطبيعة أو فى علم البيولوجيا أو فى علم الاجتماع مقصورة على جودة التمحيص للوقائع وسنها قوانين، إنها مهمة لا تنتهى بوجه ما: لأن المشكلة التى حُلت تضع دائمًا مشكلة أخرى. ولأن الطبيعة تقف عن تقديم الغذاء لما فينا من رغبة إلى التطلع؛ ولكنها مهمة

محدودة أيضًا، لأن العالم من جهة كونه عالمًا يقصر جهده على الفهم المحض. ولو لم يكن الأمر كذلك فما الذى ترمى إليه هذه الفروض كلها التى يسميها قوانين؟ ليس لها عنده إلا مقصد واحد: يجب أن تعطينا عن الكون تمثلاً وصورة ذهنية هى دائمًا أوسع وأقرب إلى المعقولية. وجماع حياة العالم فى كلمة هى المعرفة، المعرفة لاأكثر ولا غير، صحيح أن الإنسان بعد أن يتم له تمحيص الوقائع وصياغة الفروض العلمية يريد أن ينتفع بها فى سد حاجاته وإرضاء رغباته وتحقيق أهوائه: ومن هنا نشأت آلات المخترعات العلمية التى جاءت الآلة رمزًا لها، ولكن القانون المقترح شىء، والفائدة التى يحلو لنا أن نستخلصها منه شىء آخر؛ والمعرفة شىء والاستخدام شىء آخر. وإذا كنا لا نحكم على جهاز من كيفية استخدامه على يدى عامل غبى أو (غشيم) قليل المهارة، فبأى حق نحكم على العلم تبعاً لما تجرأت على استخدامه فيه إنسانية جشعة قاسية؟

فالتمييز بين الأمرين واضح كل الوضوح، بحيث يتساءل الإنسان كيف أمكن أن يقع هذا الخلط. أما أنا فأرى أن لذلك الخلط سببين: الأول أن الذى يكتشف القانون العلمى ويرسم مشروع الآلة رجل واحد فى الغالب. ومن هذا يتعجل البعض فيستنتجون من كون العالم واحدًا أن المهمة واحدة. والآخر أن العلماء كثيرًا ما يكونون أول من يفاخرون بالتطبيقات النافعة أو التى يرجى أن تعود بالنفع على الجماعة؛ وقد ينساقون إلى القول بأن غاية العلم أن يسيطر على الطبيعة. وماداموا يستبيحون لأنفسهم الفضل فى

النجاح الموفق فهم معرضون منطقيًا لأن يتحملوا وزر التطبيقات الآثمة. ولكن إذا كانت هذه الأسباب تفسر الخلط المألوف بين العلم والصناعة واستعماله فهى لا تبرره.

نعم إن الغالب أن الرجل الذى يعرف هو نفسه الرجل الذى يعمل، وأن الذى يكتشف هو عين الذى ينتفع من الاختراع. ولكن الواقع أنه متى تم له أن يركب آلة أو جهازًا من أجل غاية تتجاوز المعرفة المحضة يخرج من مجال العلم ولا يعود يحمل مهما يفعل إلا مسئوليته الشخصية. ومهما يبق الرجل هو نفسه ولا يخرج من معمله فإنه يترك مهمة ويقبل على أخرى. وإذا تغير قصده فقد تغيرت أيضا عقليته: فهو حين يكون عالمًا تكون لديه رغبة واحدة تملك عليه نفسه وهى الرغبة فى المعرفة؛ وحين يكون إنسانًا تكون له أهواؤه وعواطفه وعاداته ومصالحه وآراؤه. ولما كانت له أهواؤه فليس عجيبًا أن يسخر معرفته لخدمتها. ولكن لا دخل للعلم فى أمثال هذه الرغبات، وهو منها برىء ولو كانت آثمة.

وصحيح أيضًا أن العلماء يفخرون بالمخترعات الخيرة. ولكن من الحق أيضًا أنه إذا كان لهم فيها فضل، فليس ذلك من حيث إنهم علماء، فالعلم لم يوصهم بها ولم يوح بها إليهم: فى أى مكان من كتب علم الطبيعة يقال: إن من اللازم التغلب على المسافات؟ وفى أى مكان من البيولوجيا يقال بوجوب إنقاذ العدو بدلاً من الإجهاز عليه؟ وعلى أى براهين علمية يمكن أن تستند نصائح من هذا القبيل؟ وكيف تنقلب الملاحظة قاعدة؟ إن الرغبة فى الإسراع

والرغبة فى معالجة المرض والرغبة فى التغلب على الفضاء والمادة كلها أشياء سابقة على العلم الوضعى، وقد ألهمت العدّاء والساحر قبل أن تُلهم المهندس والطبيب. فإذا كانت أشياء خيرة فليس للعلم فضل فى هذا الخير: ولهذا السبب عينه لم يكن العلم مسئولاً لا عن المدفع ولا عن القنبلة ولا عن سائر تلك الوسائل الفتاكة الآثمة.

***

وإذن فالخلط الشائع الذى لا مبرر له بين العلم وتطبيقاته هو منشأ اتهام العلم بأنه مناوئ للأخلاق بحجة أننا قد راق لنا أن نستخلص منه وسائل للقتل وللاستعباد. والموت الذى سببه الفولاذ أو الغاز، والآلام الحادثة من المصنع، والسخافات التى تذيعها السينما: كل هذا ليس من صُنع العلم، بل من صنعنا نحن.

ولو نشأت ونمت الطبيعة والكيمياء والبيولوجيا وسط شعوب حكيمة لما «استخدمت» إلا لغايات سليمة كريمة. وإذا كان ما يحدث خلافًا لهذا، وإذا كانت الكشوف العلمية التى تعطينا عن الواقع صورة أكثر اتساقًا قد جُعلت فى خدمة أعمال الفتك والعدوان، فليس الذنب ذنب هذه المكتشفات، وإنما هو ذنب مجتمعاتنا التى تحمل فى نفسها رغبات فاسدة. وإذا لاحظنا أن هذه المجتمعات تستخدم العلم لإزهاق الأرواح تارة ولعلاج الأمراض تارة أخرى، وأنها على الجملة نوجهه إلى الشر أكثر مما توجه إلى الخير، فمعنى هذا أننا خيرون وأشرار، أو أننا أميل إلى الشر منا

إلى الخير. وهذه الملاحظة صحيحة وإن لم تكن جديدة. ولكنها إن صحت حجة علينا فليست تصح حجة على العلم.

لقد هوجمت إحدى المدن اليونانية القديمة وكادت أن تقع فى أيدى الأعداء. فلما ضاقت بحرّاسها سبل الدفاع عنها ألقوا على المهاجمين تمثالا من تماثيل الآلهة. وصرع التمثال الأعداء، وهو طرفة من طرف الجمال. فهل خطر لأحد أن يتخذ من ذلك حجة على أن الفن الجميل قاتل للناس؟ ولو اتفق أن عاون المثّال نفسه على رمى التمثال فلن يضير ذلك فن الحفر فى شىء. فليس من الإنصاف إذن أن ينهض غاندى وتاجور وأينشتين نفسه، فيتهمون العلم ويحاولون أن يحملوه عبء الآثام التى تقترف باسمه وفى كنفه. فإذا أردنا أن نحكم على العلم دون تحيزّ وجب أن نحكم عليه فى ذاته ومن وظيفته الخاصة. وإذا نظرنا إليه من هذا الوجه وجدناه بريئًا من كل ما يرمونه به. إن العالم إنسان كسائر الناس؛ وهو لذلك يجوز أن يقترف الإثم. ومن الأسف أنه يأثم فى أكثر الأحيان. ولكنه إذا استعان بالعلم على الإثم فلن يكون العلم شريكًا له بل يكون من ضحاياه.

الفصل الثالث

هل العلم غريب عن الأخلاق؟

من سوء الحظ أننا حين رددنا على الاعتراض الأول قد جعلنا الاعتراض الثانى قويًا بحيث يكاد يمتنع تقويضه. ذلك أننا إذا سلمنا بأن العلم ليس مناوئًا للأخلاق اضطررنا إلى أن نعده غريبًا عن الأخلاق ولا عناية له بالخير ولا بالشر وإنما هو موكل بالبحث عن الحق فحسب.

وكيف ننكر هذا ومهمة الأخلاق هداية العمل، ومهمة العلم تفسير الكون؟ إن الأخلاق تحكم juge أما العلم فيلاحظ Con-state. والعالم يحدثنا عما هو كائن، أما الأخلاقى فيحدثنا عما ينبغى أن يكون. ولا يستطيع المرء أن يجمع بين هاتين المهمتين المختلفتين: فليس من شأن الفلكى أن يحكم على النجوم، ولا من وظيفة عالم الطبيعة أن يناجى الذرة. فإن حاول العلم ـ وما هو إلا دراسة الموجود ـ أن يرسم لنا المثل الأعلى جاوز مهمته وزالت عنه صفة العلم. وما دام العلم بارعًا فى المعرفة وغير بارع فى الحكم، فهو بطبيعته غريب عن الأخلاق.

هذا هو الاعتراض. وما يخطر لى أن أوهنه، بل إنى أحب على العكس أن أكشف عن قوته، لأنى أعتقد أن كثيرين من أهل العقول الراجحة قد تجاهلوا قوة الاعتراض، فأساءوا تصور العلاقات بين الأخلاق والعلم، وقادونا إلى الهوة التى يجب علينا أن نخرج منها اليوم.

حق إن العلم «وضعى» "positive" لا «معيارى[1]» "normative" وحق أنه يبحث فيما هو كائن، لا فيما ينبغى أن يكون. وصحيح أن العالم يجب عليه حين يبحث عن حقيقة ما أن يخرج من هذا البحث كل رغبة صريحة أو مستترة تدعوه إلى أن يحكم على ما يشاهد أو أن يستخلص منه قاعدة للحياة. وما فتئ كثير من الناس مترددين فى قبول هذا الأمر البديهى، لأنهم يرون فيه نوعًا من الإخفاق. فهم يصرون على أن يقولوا للعلم: «اخلق واعطنا أخلاقًا!»، ولكنهم لا يتنبهون إلى أن العلم لو استجاب لأمنيتهم لخرج عن مهمته، وفقد احترام نفسه، وضاع معه نفوذه.

من هذا الخلط نشأت جميع المذاهب الأخلاقية المتهافتة التى يسمونها «علمية»، والتى ربما كانت تضّر بالعلم لو لم يكن العلم فوق هذه الألاعيب التى يحاولها البعض مستغلين اسمه.

فمن الناس من يطلب إلى البيولوجيا علمًا أخلاقيًا فيقول: «جميع الكائنات تريد أن تعيش. وهذه حقيقة واقعة. فإرادة العيش يجب أن تستخدم أساسًا للأخلاق». ولكنا نقول: إنه لو ثبت أن جميع الأحياء يريدون أن يعيشوا فبأى حق يقرر العلم أن مثل هذه الإرادة عاقلة وأنها طيبة؟ وعلى أى نوع من المشاهدات أو التجارب

---

(١) انظر هامش (١) فى بداية الفصل الرابع، ص٦٣.

يستند هذا القول؟ وماذا يسوغ للعالم أن يأمرنا بأن نطيع الطبيعة بدلاً من أن نقاومها؟

ومفكرون آخرون اعترضتهم هذه الصعوبات فعدلوا عن التوجه إلى العلوم المستقرة، ولجأوا إلى علم آخر أطلقوا عليه اسم «علم الأخلاق» ونسبوا إليه ـ كما يشير اسمه ـ جميع صفات العلم وجميع صفات الأخلاق معًا، وراحوا يقولون فى زهو: «هاهى ذى المشكلة قد حلت!».

ولعمرى هذا ما يرجوه «علم الأخلاق». إنه يعطى بلا حساب ما يطلبونه إليه: يعطى أخلاقًا عقلية أو قلبية، ويعطى أخلاقًا لمنفعة الفرد أو لمنفعة الجماعة، وأخلاقًا للطبيعة وللشرف وللتعاون وللواجب، حتى ليتحير المرء فى أن يختار منها واحدة. ولمّا كان كل ضرب منها مرتبطاً بنظام من الاستقراءات والاستنباطات، فقد عرضوا علينا واحدة منها على أنها أخلاق علمية. ولسوء الحظ أنه ليس منها واحدة استطاعت أن تولد فى النفوس هذا الحد الأدنى من الاتفاق الذى يولده العلم. وهذا وحده يلقى شيئًا من الريبة على الصفة التى تزعمها لنفسها، والواقع أن المسيو «لقى برول»[1] قد بين فى كتاب كان له بين الناس ذكر[2] أن «علم الأخلاق» لما كان علمًا «معياريًا» normative فليس له من

(١) «لقى برول» Lévy - Brühlz، كان أستاذاً لتاريخ الفلسفة فى السربون. له بحوث مهمة عن «ألمانيا منذ ليبنتز» و «أوجست كمت» و«الأخلاق الاجتماعية». وهو أحد زعماء المدرسة الاجتماعية الفرنسية.

(٢) الكتاب الذى يشير إليه الأستاذ بابيه هو كتاب: «الأخلاق وعلم الطبائع والعادات» La morale et la science des moeurs.

العلم إلا اسمه، وأنه تناقض فى الألفاظ ومخلوق ممسوخ، وعبثًا يستعيرون اسم العلم والمظهر الخارجى للعمل العلمى: فإنهم متى جعلوا موضوع دراستهم ما ينبغى أن يكون بدلاً مما هو كائن فقد تجاهلوا الروح نفسها المسيطرة على عمل العالم.

إنى أحيل القارئ على ما أورده المسيو «لفى برول» من حجج. لقد انقضى ربع قرن من المجادلات الحادة المحتدمة، وما زالت حججه محتفظة بكل قوتها. إنى أعلم أن أنصار المذهب القديم يردّون بأن من الممكن أن تكون هناك علوم من أنواع مختلفة. وأن الآراء عن الخير والشر إذا بقيت عقلية يمكن أن تسمى علمية، ولكن من البديهى أن هذا محض لعب بالألفاظ، وأن بين المذاهب الأخلاقية عند أرسطو و «زينون»[1]، و«كانت»، والمذاهب الوضعية عند «نيوتن» و«أينشتين» فرقًا فى الطبيعة، وماعسانا أن نستفيد من الجمع تحت لفظ واحد بين أشياء شديدة التباين كهذه؟ قد تبيح اللغة هذا، ولكن الحقيقة تأباه، ويقف العلم ثابتًا وهو يشهد موت هذه المذاهب التى انتسبت إليه دون أن تخرج من صلبه.

أمعنى هذا أن من المستحيل أن ندخل العلم مجال الأخلاق؟

لست أنا الذى أقول قولاً كهذا. يستطيع العلم أن يدخل مجال الأخلاق، ويجب أن يدخله مع بقائه هو هو. إن أفكار المجتمعات المختلفة عن المثل الأعلى، وعن الواجب، وعن الحياة، وبالجملة عن الخير والشر، هى وقائع موجودة ثابتة نستطيع أن نلاحظها كما

---

(١) «زينون» (٣٦٠ ـ ٢٦٣) فيلسوف يونانى أصله من قبرص أسس المدرسة الرواقية فى أثينا. وكانت حياته مثلا أعلى فى سمو الأخلاق.

نلاحظ المنحنى الذى يرسمه نجم من النجوم، أو الخط الذى يحيط بهيكل جسم من الأجسام. وإذا كان علم الأخلاق وهماً لا وجود له، فإن علم الوقائع الأخلاقية «الإتولوچيا» Ethologie يمكن أن يكون علماً وضعيًا مضبوطًا كعلم الطبيعة والبيولوچيا. وحسبه لكى يكون علمًا أن يتذرع بالشجاعة والحزم لينفصل عن الفلسفة التى خرج منها كأسلافه: وعليه أن يطلق أمله فى أن يكشف، لأول وهلة وبعمل تجريدى أولى، عن القوانين العامة للعالم الأخلاقى، وأن ينهض بما يملك من همة وصبر لدراسة الوقائع، وأن يفرض على نفسه منهجًا متشددًا متبصرًا كالمناهج التى تستخدم فى دراسة العالم الطبيعى. نعم إن المهمة شاقة، لأن احتمالات وقوعنا فى الخطأ تزيد كلما زاد اشتغالنا على وثائق إنسانية. ولكن الجهود الخصبة التى بذلها التاريخ الحديث قد عملت فى أناة على تجديد منهج نقدى ليس أقل متانة من أى منهج علمى آخر. وإن من المؤرخين أمثال «كركو پينو» أو «پيكار» من بلغوا فى تمحيص الوقائع الإنسانية من التحوط - وقد كدت أقول من التوجس والحذر - الدرجة التى يمكن أن يصل إليها مسيو «رابو» Rabaud نفسه إذا أراد أن يمحص واقعة بيولوچية. ويوم تصح عزيمة علماء الاجتماع على مراعاة هذا المنهج نفسه فلن يكون علم الوقائع الأخلاقية أقل متانة من أى علم من العلوم التى سبقته. وإنى لوطيد الأمل فى أن ترى القرون القادمة تطوراً فى علم الاجتماع شبيهًا بالتطور الذى نشاهده الآن فى علم الطبيعة: يومئذ يكون العلم قد وسّع مجاله

ومدّ رحابه، فيصبح كما أراده «أوجست كمت»[1] السيد الروحى للعالم الحديث، ويسيطر بيقينه على آلاف المشكلات المتروكة اليوم لهاتيك النظرات العقلية الجليلة التى لا تخلو مع ذلك من زعزعة وقلة يقين.

غير أننا حتى لو تجرأنا فى استباق الحوادث، فذهبنا إلى افتراض أن علم الوقائع الأخلاقية، قد شب وخرج نهائيًا من طور طفولته، فلن يتغير وضع المشكلة العملية التى تعنينا، بل تظل هى هى بنصها وعباراتها.

لنتصور أن «الإتولوجيا» تقول لنا: إن الواقع يشهد بأن الأفكار الأخلاقية عن القتل والانتحار والسرقة والكذب تتغير طبقًا لهذه الواقعة أو تلك من الوقائع، وأن التصورات المتعلقة بالأسرة بالمدينة تتبع فى بيئة معينة هذا المنحنى أو ذاك. صحيح أن أمثال هذه النتائج التى نلمحها ولا نراها ستكون رائعة. ولكن العلم الذى يقيد تلك الوقائع وتلك العلاقات لن يسمح لنفسه بأن يستخلص منها أمرًا ولا نهيًا. إنه إنما يهدى إلى السبيل التى سلكها الناس، ولا يستطيع أن يأمرنا بما يجب علينا أن نسلك من سبل: تلك مهمته؛ فإن تجاوزها انقلب من علم الوقائع الأخلاقية إلى «علم الأخلاق»، وعدنا بذلك إلى سيرتنا القديمة.

---

(١) انظر هامش ٤، ص٦٤.

وللتخلص من هذه الصعوبة عمد «دور كايم»[١] إلى تفرقته المشهورة بين ما هو طبيعى، أو صحيح أو مطرد normal وما هو «معتل» أو مرضى Pathologique. يرى «دور كايم» أن علم الاجتماع يجب أن يصل إلى أن يحدد لكل فئة اجتماعية حالة «طبيعية» شبيهة بحالة الصحة فى الفرد. وإذا تم ذلك فقد وجدنا أمام أبصارنا مثلا أعلى، ولم يبق علينا إلا أن نبلغه.

ولكن تلك النظرية الطريفة ترد عليها اعتراضات خطيرة: إنها أخذت الطبيعى مقابلاً للمرضى. ولكن كل ما هو غير طبيعى ليس بالضرورة مرضيًا. فإذا جرينا على قاعدة «دور كايم» استهدفنا لأن نحمل على محمل الذم ماخرج عن المألوف فى الحسن والقبح على السواء. وصعوبة أخرى: لا بد لنا أن نعتمد على أمثلة من الماضى لكى نحدد النوع المسمى بالطبيعى. وهذا قد يسد طرق التقدم: مثال ذلك أن دور كايم يشرح لنا فى صفحات مشهورة أن انتشار الجرائم فى مجتمعاتنا إلى درجة معينة أمر طبيعى. وهذا أمر لايخامرنا فيك شك إذا نظرنا إلى ما حدث حتى اليوم. ولكنا لو فرضنا أن العلم وجد غدًا وسيلة لتقليل عدد القتلة واللصوص، فهل ننكر هذه الوسيلة زاعمين أن تقليل عدد المجرمين أمر غير طبيعى، وأنه إذن شىء مرضٍ؟ وأخيرًا ماالذى يسوغ لعلم الاجتماع

---

(١) دور كايم Durkheim (١٨٥٨ ـ ١٩١٧) زعيم المدرسة الاجتماعية الوضعية الفرنسية، وله بحوث مهمة فى الاجتماع والأخلاق والتربية؛ وجه أكبر عنايته إلى إقامة أخلاق وضعية بالمعنى الصحيح. أشهر مؤلفاته: «قواعد منهج العلم الاجتماعى»، و«توزيع العمل الاجتماعى»، و«الانتحار» إلخ.

أن يقرر أن حالة «الصحة» حسنة ومرغوب فيها لمجتمع ما. إن المجاز لأول وهلة يجيز الفكرة: لأننا نقول: إن الصحة فى الأمور الفزيولوجية شىء مرغوب فيه بلا نزاع.

ولكن لو فرض أنها كانت مرغوباً فيها فليس علم البيولوجيا هو الذى يقول ذلك: ليس لدى البيولوجى شىء يقوله لمن يقبلون أن يتحملوا الآلام والموت نفسه باسم مثل أعلى ينشدونه. وكذلك فى مجال الأخلاق: لا ندرى ما عسى أن يقوم علم الاجتماع لفئة من الناس قصدت إلى الشذوذ عمدًا. لكى ينكر علم الاجتماع هذا القصد يجب أن يكون محتفظًا فى جعبته بتعريف علمى للخير والشر. ولكنه لكى يعطى تعريفًا كهذا يجب أن ينقلب علمًا تشريعيًّا: وإذن فنحن نجد أنفسنا وجهًا لوجه أمام الصعوبة التى أردنا أن نتفاداها.

***

خير لنا أن نكون أكرم نفسًا، فنعترف بأننا لا نستطيع بحال من الأحوال أن نمس ما روح البحث العلمى. إن تحويل المشاهدة أو الخبر إلى أمر أو نهى يحتاج إلى معجزة؛ والعلم لا يصنع المعجرات. يستطيع العلم أن يدلنا على الأفكار الأخلاقية عند الفئات الإنسانية، ويستطيع أن يدلنا على كيفية تطورها، ولكنه لا يستطيع أن يرشدنا إلى قيمتها ولا إلى ما كان ينبغى أن تكون. فلنوطن أنفسنا على هذا فلا نطلب إلى العلم ما لا يسوغ له أن يعطينا.

ولكن ليس معنى هذا أن العلم يعجز عن التأثير بطريق غير مباشر فى الحقائق الأخلاقية. إننا نستطيع أن نستخلص التطبيقات من علم الوقائع الطبيعية. وإذا تركنا الآن النتائج المباشرة لمسلمة «الحتمية» determinisme التى سنتحدث عنها بعد[1]، وفرضنا أننا اكتشفنا الأسباب التى تؤدى إلى زيادة عدد حوادث السرقة والقتل، تيسر لنا بداهة أن ننتفع بهذه المعرفة فى تخفيض عدد تلك الجرائم. ولو فرضنا أننا استطعنا يومًا أن نتكهن تكهنًا يقينيًا بالاتجاه الذى سيمضى فيه تطور الأخلاق فيما يتصل بالطلاق والملكية والمساواة، ساغ لنا عندئذ أن نأمل بأن نرى خصوم الأفكار التى قدّر لها الانتصار تخف حدتهم فى معارضتها إذا عرفوا أنها لا مفر منها. لاأحب أن أحط من شأن هذا الأثر الذى درسته طويلا، والذى يمكن أن يكون عظيمًا، ويحلو لى أن آمل أن يكون أثرًا طيبًا. ولكن هناك على كل حال ملاحظتين ضروريتين: الأولى: أن هذا الأثر الطيب افتراضى محض. والأخرى: أنه حتى لو تحقق فلن يكون إلا أثرًا غير مباشر، ولن يكون العلم باعثه ولا صاحب الفضل فيه.

أقول إن الخير فى هذا الأثر افتراضى: والواقع أنه لا شىء يضمن لنا أن مجتمعًا ينتفع بالاكتشافات الأتولوجية لكى يستخلص منها إصلاحات نافعة. ولنفرض أنه ثبت ثبوتًا قاطعًا أن تعاطى المسكرات يزيد عدد الجرائم. فهل تكفى هذه الملاحظة فى حمل

---

(١) فى الفصل الثامن.

تجار الخمور على العدول عن تجارتهم؟ ولنتصور أيضًا أنه ثبت على وجه لا يحتمل الشك أن مذهب الحماية الصناعية فى مجتمعاتنا الحاضرة سبب من أسباب الحرب. فهل تعدل الصناعات المحمية بهذا عن تلك الحماية؟. إن ثمة فرقًا بين المعرفة والإرادة: نقرأ اليوم إحصائيات تجعلنا نتبين بجلاء أن نظام العقوبات الذى يطبق عندنا على المراهقين لا يردعهم عن الإجرام بل يحملهم على التمادى فيه. ويقرأ كثير من الناس هذه الإحصائيات وهم يفكرون فى شىء آخر. وإن الأرقام تثبت أن تقييد الدعارة باللوائح يخلق فى بلدنا مباءات للفساد الجسمانى والأخلاقى. ويُلقى الناس نظرة عابرة على هذه الأرقام، ويتركون اللوائح القديمة تسير سيرتها الماضية. واعتقادى أن تقدم على الاجتماع سيزيد معارفنا يقيناً ووسائلنا للعمل قوةً. ولكن ليس من المؤكد بداءةً وقبل التجربة apriori أن رغبتنا ستصير بهذا أشد وأقوى.

يمكن أن يقال أيضًا إن فكرة واضحة عن التطور الذى يسوقنا إلى هذه الناحية أو تلك ينبغى نظرياً أن يؤدى إلى الاتحاد وجمع الكلمة أكثر من ذى قبل. وقد يقال إن دعاة مَثَل من المُثُل العليا، متى عرفوا أنه تخلّف عن الزمن، انضووا تحت لواء الفكرة التى قدِّر لها الغلبة. ولكن ما هذا إلا افتراض يجوز أن تؤيده الوقائع؛ ويجوز أيضًا أن يكون أنصار المثل الأعلى مخلصين مؤمنين بقضيتهم، لا يتخلفون عن الذود عنها، ويناضلون من أجلها إلى النهاية، حتى ولو عرفوا أنها خاسرة لا يرجى لها نجاح.

ولكن مهما يكن الأمر فإن هناك شيئاً لا نزاع فيه: وهو أن علم الوقائع الأخلاقية، من حيث هو علم، ليس له علينا سلطان. فهو لا يأمرنا أن نفعل شيئًا ولا ينصح لنا أن نجمع كلمتنا على شىء.. إنه يستطيع أن يقول لنا: هاهو ذا سبب هذا النوع أوذاك من الجرائم. ولا يستطيع أن يقول لنا: افعلوا شيئًا فى هذا السبب! ويستطيع أن يقول: هاهى ذى فكرة فى طريقها إلى النصر. ولا يستطيع أن يقول لنا: تخلوا عن الفكرة المخالفة! أما المصلحون الاجتماعيون - وسيأتى يوم يحلون فيه محل المهرجين من السياسيين ضيقى النظر - فعلم الاجتماع يعطيهم وسائل للعمل ولا يعطيهم همة وثابة ولا أغراضًا واضحة.

والأمر الأهم، الأمر الذى نجد أنفسنا دائمًا مضطرين إلى أن نعود إليه، هو كيف نختار مثلا أعلى؟ إن مذهب الأخلاق القديم يدلنا لا إلى مثل أعلى واحد، بل إلى عشرة؛ ولكنه لم يكن علمًا. أما «الإتولوجيا»، أعنى علم الوقائع الأخلاقية، فهى علم؛ ولكنه لا يعطينا أى مثل أعلى.

أيلزمنا إذن أن نسلم بأن العلم، ومهمته المعرفة المحضة، عاجز بماهيته عن أية هداية للإنسان؟ وأليس لنا بدّ من أن نعترف بأن العلم يضىء العالم ولكنه يترك فى القلوب ظلامًا!

من الناس من لا يترددون أمام هذه النتيجة العابسة: فهذا مسيو «لفى برول» يجيب بابتسامة على صرخة الجزع المنبعثة من طالبى مذهب أخلاقى جديد قائلاً لهم: لا نستطيع أن نعطى جماعة من

الجماعات إلا الأخلاق التى اصطفتها من قبل. كلمة موئسة! ولكنها لا تخلو من عمق ومن إقناع، وإن يكن فيها إثارة للمشاعر. وكأنّ المتشوقين إلى المثل الأعلى يقفون على عتبة العلم فيجدون أمامهم جملة خطها القدر المحتوم: «اتركوا كل أمل!».

مهما يكن فى هذه النتيجة من منطق وصرامة فعلينا أن نعترف أولاً بأن فى أعماق نفوسنا شيئًا يرتفع بالاحتجاج عليها: فمنذ بضعة قرون غيَّر العلم فكرتنا عن الكون وعن أنفسنا: طارد الأساطير القديمة، و«الكسموجونيات»[١] المقدسة، ونقّب عن اللامتناهى فى العظم واللامتناهى فى الصغر، وأخضع لانتصاراته أفكاراً كانت تبدو ثابتة، كفكرة الزمان والمكان، ولم يستطع شىء أن يقاوم توثبه. أيكون مآل كل هذا العمل البديع أن يخفق على عتبة العالم الأخلاقى! وهذه التغيرات الهائلة فى مجال العلم ألا يصاحبها أى تغّير فى مجال الأخلاق! وأنّى لنا أن نعتقد بأن هنالك انفصالا تامًا بين الفكر والعمل، بين الحق والخير! إن علم الاجتماع الناشىء يرينا أن مذاهب الأخلاق حقائق متحركة وأنها دائمًا فى طريقها إلى التغير. أنكون مضطرين الآن إلى أن نسلم بأن الثورة العلمية ستنقضى دون أن تترك فى تلك المادة المتغيرة أدنى أثر؟ ما أبعدَ هذا عما يشبه الحق! كل شىء يؤثر فى الأخلاق: البيئات وأنماط الحياة والأحوال الاقتصادية والفن والأديان والفلسفات؛ فهل يبقى العلم وحده بعيداً عن التأثير فى الأخلاق؟

---

(١) «الكسموجونيات» نظريات فى تكوين العالم.

أعلم أن بعض الناس سيردّون علينا بأننا نحن الذين نقول هذا. والواقع أننا نحن الذين صرحنا بأنه لا علم إلا مما هو «وضعى»: ويبدو أننا بهذا قد سددنا بأيدينا الطريق إلى رغباتنا. إننا نحن الذين نصرح بأن المشكلة جوهرية وأن حلها مستحيل.

ولكن مشكلة ما إذا بدا حلها مستحيلا، فلذلك لأنها فى الغالب لم توضع وضعاً صحيحًا. وأعتقد أن هذا يصدق على المشكلة التى نحن بصددها: إذا نظرنا إلى العلاقات بين الأخلاق والعلم على نحو ما نظر إليها أسلافنا، لم نستطع أن نسير أبعد مما ساروا. إننا من وجه ما قد نقطع شوطًا أقل مما قطعوا: لأن منهجنا يُلزمنا بتدقيقات وقواعد لم يعهدوها. ولكنا إذا غيرنا نص المشكلة، ووضعناها وضعًا علميًا، وجدنا الحل الذى كان ينفلت منهم معروضًا من نفسه علينا؛ إنه ماثل أمامنا، ويعيش تحت سمعنا وبصرنا؛ إنه منقوش فى الواقع، قبل أن يكون مسجلاً فى الكتب؛ ولا حاجة بنا إلى أن نخترعه، بل علينا أن نشاهده.

الفَصلُ الرَابعُ

أخلاق العلم

بذل المفكرون حتى اليوم جهودًا كثيرة لإقامة علم للأخلاق. وكانت جهودهم توغلاً فى مأزق لا مخرج منه، لأنه لا يمكن أن يقوم علم بما هو «معيارى» أو «تشريعى» "normatif"[(١)]. ولكن لنقلب المشكلة فنتساءل: إذا لم يمكن إقامة علم للأخلاق، أفلا يمكن أن يكون هنالك أخلاق للعلم؟

أعتقد أن وجود أخلاق للعلم أمر ليس ممكنًا فحسب، بل هو موجود بالفعل. وأخلاق العلم عبارة عن جملة الأفكار المعيارية التى حملت الناس على السير فى طريق البحث العلمى، والتى جعلتهم يحددون مناهجه ويوثقون تقدمه.

وما دام الناس يطلبون إلى العلم أن يصنع مثلاً أعلى برمّته، فهو يتهرّب من هذه المهمة، لأن له مهمة أخرى. ولكن إذا سألناه أىُّ مثل أعلى يستوحيه وأى المبادىء هى مبعث نشاطه الفعلى أجابت الوقائع وكشف العمل عن العامل.

---

(١) بعض العلوم يكون القصد منها تفسير الظواهر، كعلوم الطبيعة، فسميت من أجل ذلك «علومًا تفسيرية» "Sciences explicatives"؛ وبعضها يكون الغرض منها وضع القواعد وصوغ المعايير، كالمنطق والأخلاق؛ وقد أطلق عليها «فندت» Wundt اسم «العلوم المعيارية» "Sciences normatives" _ المعرب.

وقد يُقال إن أخلاق العلم هذه لم يَصغُها أحد بعدُ، ولم يركزها أحد فى مذهب؛ وهذا صحيح. ولكنى أود أن أبين أن هذا ليس انتقاصًا ولا بدعًا.

اعتدنا بتربيتنا الفلسفية أن لا نطلق الأخلاق إلاّ على الأفكار التى رتبها أهل الصنعة ترتيبًا علميًا. نقول: أخلاق أفلاطون(١)، وأخلاق أرسطو(٢)، وأخلاق «كانْت»(٣)، أخلاق «كُمِت»(٤)، ونكاد نميل إلى الاعتقاد بأن كل شىء فى الأخلاق قائم فى تلك المذاهب الكبيرة المرتبة والموقع عليها!

---

(١) «أفلاطون» (٤٢٧ – ٣٤٧ ق . م) فيلسوف يونانى كبير، تلميذ سقراط وأستاذ أرسطو، كتب محاوراته الفلسفية فى أسلوب هو غاية فى الروعة والبهاء. وتكاد تكون شخصية سقراط مدار تلك المحاورات، ويكاد يكون الفكر المسيطر عليها نفحة من نفات النظر السقراطى الباهر، ولكن أفلاطون كان شاعرًا بقدر ما كان فيلسوفًا، فاستطاع أن يفيض من روحه على تعاليم أستاذه وأن يمدها بما لعبقريته من قوة وعمق وسناء، وأفلاطون منشئ المذهب المثالى، وهو شيخ الطامحين إلى المثل الأعلى فى كل شىء. وإذا كان هذا «الفسلسوف الإلهى» قد أخطأ فى السياسة فمرد هذا الخطأ نفسه إلى رغبته المتأججه فى أن يجعل «للخير» على الإطلاق سلطانًا على النفوس ـ المعرب.

(٢) «أرسطو» (٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م) أكبر العلماء والفلاسفة في العصور القديمة، تتلمذ علي أفلاطون، وواصل تعاليمه المثالية؛ ولكنه جعل فيها للتجربة والمشاهدة نصيبًا أكبر مما كان لهما عند أفلاطون. ثم أستقل أرسطو بالمدرسة الفلسفية الكبيرة التي أُطلق عليها اسم «المدرسة المشائية». وقد ألف أرسطو كتبًا ورسائل كثيرة أهمها: «ما بعد الطبيعة» و«العلم الطبيعي»، وكتب في المنطق وعلم النفس والأخلاق والسياسة إلخ، فأحاط بمعارف عصره وأصبح معلمًا لا لبلاد اليونان وحدها بل للإنسانية كلها ـ المعرب.

(٣) «كانت» Kant (١٧٢٤ – ١٨٠٤) أكبر فلاسفة الألمان، وأحد أساتذة الفكر الإنساني. حاول أن يقيس قدرة عقولنا، وأن يرسم لها حدودهاومداها؛ فوضع العقل الإنساني موضع النقد الدقيق؛ ومن أجل هذاأطلق علي فلسفته اسم «الفلسفة النقدية». والمذهب الكانتي مبسوط في ثلاثة كتب علي الخصوص: الأول «نقد العقل الخالص» ؛ أي نقد مبادئ العلم؛ والثاني «نقد العقل العملي» أي نقد مبادئ الأخلاق، والثالث «نقد الحكم» أي نقد مبادئ الذوق. ويعد كانت أكبر الأخلاقيين في العصور الحديثة ـ المعرب.

(٤) «أوجست كمت» Auguste Comte (١٧٩٨ – ١٨٥٧) فيلسوف فرنسي، مؤسس مدرسة فلسفية تسمي بالمدرسة «الوضعية» "Positiviste" كما أنه مؤسس العلم الوضعي للجماعات أو «علم الاجتماع». أهم كتبه: «دروس في الفلسفة الوضعية» و «قواعد العقيدة الوضعية» و «السياسة الوضعية» وأخيرًا «دين الإنسانية». وقد كان لهذا الفيلسوف تلاميذ كثيرون أغلبهم من العلماء والأطباء؛ ولكنهم لم يتابعوه

ولكن من النتائج الأولى التى اكتسبناها من علم الوقائع الأخلاقية إزالة هذا الوهم: الأخلاق عند مَن يلاحظها ملاحظة عامية هى التمييز بين الخير والشر على نحو ما يتجلى فى الوقائع الاجتماعية. والفلسفات إحدى هذه الوقائع؛ ولكن هناك وقائع أخرى تَعدِلها أهمية وخطرًا.

من المستبعد أن يكون فيلسوف كبير أوثقَ دليل يهدى من يريد معرفة الأخلاق فى عصر أو بلد معين: إن عبقرية الفيلسوف تحمله على أن ينظر إلى الأشياء نظرة شخصية، وعلى أن يهمل بعض الوقائع، وأن يبرز بعضها الآخر، صحيح أن أجمل مذهب ليس إلا انعكاسًا لفترة من الزمان أو لبيئة من البيئات؛ ولكنه مرآة تشوّه الملامح.

ليست الأخلاق اليونانية محصورة فى مذهب أفلاطون ولا فى مذهب أرسطو، ولا الأخلاق الكاثوليكية محصورة فى مذهب القديس «توما». فالصورة الوضاءة التى يرسمها الفيلسوف شىء، والحقيقة التى تؤثر مباشرة فى الوقائع، وإن لم يُعبَّر عنها بالألفاظ شىء آخر. هذه الحقيقة المؤثرة يبحث عنها عالم «الإيتولوجيا» فيما ابتدعه المجتمع من نظم كبرى كاللغات والشرائع والفنون والآداب والعادات: هنا يكشف عالِم الإيتولوجيا القوى العميقة التى تتحكم المذاهب من داخلها أو خارجها، وتقود الجماعات الإنسانية، وتكون أغلب الأحيان منقوشة فى الوقائع قبل أن تودع فى العبارات.

ولننظر ـ مثلاً ـ فى الأخلاق التى تنظم الأسرة فى مجتمعاتنا: إن اليونانى والرومانى والفرنسى يمارسون الزواج من زوجة واحدة. لنسألهم باسم أى مبدأ فلسفى يخضعون لهذه القاعدة؛ عندئذ نجدهم فى حيرة لا يجيبون. ولكن أخلاق الزواج بامرأة واحدة، تلك الأخلاق التى تلهم قانونهم المدنى والجنائى كما تلهم عاداتهم وآدابهم ليست مع ذلك أقل قوة. إن زواج الرجل من ذويه الأقربين، محرّم عند هؤلاء اليونان والرومان والفرنسيين. فهل لهذا التحرير صلة بنظرية أفلاطون فى «المُثل»، أو ينظرية أرسطو فى الوجود، أو بالخير الأسمى عند «الرواقيين» أو «الأبيقوريين»، أو بمبادئ القديس «توما»، أو بقواعد «كانْت» ؟ أعتقد أن من العسير أن نجد صلةً من هذا القبيل؛ ولو وجدت لكانت لفظية واهنة. ولكن الأخلاق التى تستنكر الزواج من المحارم l'inceste تلك الأخلاق المسطورة فى القانون وفى العادات، ليس أقل من المذاهب الفلسفية قوة وعمقًا، وإنَّ لم تكن معروضة فى مذهب قد أُلِّف تأليفًا منطقيًا.

ولننظر أيضًا فى أكبر تحول عرفته المجتمعات الغربية: وهو إلغاء الرق. لو سئلنا اليوم فى القرن العشرين باسم أى مذهب نستنكر الرق استطعنا أن نجيب جوابًا لا يخلو من منطق: إن ذلك باسم فلسفة القرن الثامن عشر التى أعلنت حقوق الإنسان. ولكنا نعلم حق العلم أن تلك النظرية لم تحرر إلا بعد حين، أى بعد أن كانت المهمة قد تمت، وبعد أن كان الرق كله قد اختفى أو كاد يختفى من مجتمعاتنا. ولكن لنبحث فى التاريخ عن المذاهب التى أدت إلى إلغاء الرق. يحيل بعض المفكرين إلى الأخلاق الرواقية: ولكن

«الرواقيين»[1] كان لهم أرقاء. ويُحيل البعض الآخر إلى الأخلاق المسيحية: ولكن الكنيسة كان لها أرقاء. ولقد كان المفكرون من جميع المدارس يجدون دائمًا صيغًا مرنة تعينهم على أن يراعوا النظام العتيق، وكأنهم يحملون عليه بإحدى اليدين، ويؤيدونه باليد الأخرى. ابحث ما شئت فى التاريخ؛ فإنك لن تجد ذلك المشهد الرائع، مشهد مذهب يقوم فيقضى على الرق، ولكن من حسن الحظ أن هنالك أخلاقًا واقعية كانت تعمل وتؤثر بينا كان الفلاسفة يتكلمون ويكتبون. وتلك الأخلاق الواقعية هى التى ألهمت «نيرون»[2]، ذلك المحسن إلى الإنسانية، أن يحقق ذلك العمل الثورى العظيم الذى أباح للرقيق إذا عومل معاملة بالغة القسوة أن يرفع شكواه إلى القضاء، وألهمت القرارات الكثيرة التى أصلحت حال الرقيق ثم الموالى serfs. فماذا كانت حقيقة تلك الأخلاق الواقعية؟ لو سئل الذين كانوا يخدمونها عن تعريفها لاعترتهم حيرة: لأن المشرعين

(١) «الرواقيون» "Les Stoiciens" (القرن الثالث قبل الميلاد) أصحاب مدرسة كبيرة من المدارس الفلسفية اليونانية، اشتهروا بمذهب أخلاقى بلغ مبلغًا كبيرًا من القوة والنيل والتأثير. ويتلخص المذهب فى أخلاق الواجب، التى تجعل شعارها أن يعمل الإنسان ما يجب من غير نظر إلى عواقب العمل. وفى تفاصيل الأخلاق الرواقية أمور كثيرة قد ينازع فيها، ولكن فى المذهب مباينة صريحة لأخلاق اللذة التى دعا إليها «إبيقور» فى نفس ذلك العصر. ومن حسن الحظ أن أجمل تعاليم الرواقية قد بقيت على الأجيال بفضل ما خلقه «إبكتينوس» و «سنكا» و «مرقس أوريليوس» فى أقوالهم التى تتضوع بعبير التقوى وعزة النفس واحتقار الموت. وقد يؤخذ على الرواقيين فى سلوكهم من كبر واعتزاز وازدراء للحياة، ولكن العصور القديمة كلها لم تبلغ قط ما بلغوه من الشعور بكرامة الإنسان. ـ المعرب.

(٢) «نيرون» Neron امبراطور رومانى عاش فى القرن الأول للميلاد واشتهر بقسوته وفظاعته.

الرومان الذين كانوا أول من عمل لهذه الأخلاق، يقعون فى متناقضات تستدعى الإشفاق حين يستهدفون إلى الإشارة بهذا الصدد إلى شىء من المبادئ. ولكنّا نحن بعد حين نرى النهج الذى سلكوه والذى انتهى إلى حقوق الإنسان. إن الأخلاق الصامتة المتضمنة فى جهودهم المتواصلة أقوى من العبارات المزعزعة التى نقرؤها فى كتب الفلاسفة.

وإذن فليس علينا من بأس إذا لم تنتظم أخلاق بعد فى مذهب ولم تتركز بعدُ فى قواعد، بل لن يزعجنا أن ترى أن بعض العلماء لم يلبوا دعوتها عن وعى وشعور. لم يكن لهذه الأخلاق نُظّارها، ses the-oriciens وإنما كان لها عُمّالها (Ses artisans)، ولم تعبِّر عن مثلها الأعلى باللفظ وإنما خدمته بالفعل؛ إنها متضمَّنة فى وجود العلم وفى نفس تطوره.

ذلك أن للعلم مقصده الذى يشير إليه حين يسعى إليه، وإن شئنا قلنا إن للعلم حقه، لأننا نستطيع أن نطلق هذا الاسم على المنهج العقلى الذى تهيؤه جهود الباحثين الموصولة. فلندرس هذا المقصد، ولندرس هذا الحق، فنتبين حينئذ أنهما يستلهمان مثلاً أعلى، وأنهما يفترضان ويتضمنان نظرة عن عظمة الإنسان وجمال الحياة.

وتلك الدراسة هى التى أريد أن أخط خطوطها الأولى فى الصفحات التالية. ولكنى أريد قبل الشروع فيها، أن أنوّه بأنها من طبقة الدراسات الوضعية بالمعنى الدقيق، وأن المثل الأعلى الذى سنحاول بلوغه ليس من المثل العليا المتخيلة التى خلقها، ثم فرضها،

أو أوحى بها علماء تجاوزوا مجالهم الخاص، وإنما هو المثل الأعلى الذى يوحى إليهم، ويستحثهم على العمل حين يبقون فى مجالهم لا يعدونه، ولا يظن أحد أن العلماء يبغون أن يفرضوه علينا مغتصبين لأنفسهم وظيفة المشرعين، بل إنهم لا يبالون بأن يزينوه لنا، ولا أن يخلعوا عليه ثوبًا قشيبًا خلابًا بل ولا أن يعبروا عنه بالكلام، وإنّ منهم من يترسمه ويتأثره دون أن يراه. أما نحن فمتى أخذنا فى تحليل العمل الذى قاموا به انكشف لنا المبدأ الذى أعانهم على إتمامه.

وإذن فنحن الآن، وسنظل إلى النهاية فى منطقة الوقائع لا الأوهام، نلاحظ حقيقةً ما ملاحظة علمية، وفقًا للقواعد التى يجرى عليها العلماء فى البحث النقدى.

أطلتُ القول فى هذه الأمور، لأنى لا أحب أن أقع فى الخلط الذى أشرت إليه فيما سبق، ولا أن أنحرف دون أن أشعر عن موقف العالم إلى موقف المشرع. وأرجو أن أكون قد تجنبت هذا الخطر فيما عالجت حتى الآن. وأحسب أننا حين نقف بإزاء واقعة اجتماعية كبيرة، كالخلق العلمى، فنبحث عما انطوى فيها من أخلاق، نكون مخلصين للمنهج الاجتماعى الدقيق، وغنى عن البيان أن التخطيط الذى أحاوله هاهنا بسيط جدًا وبعيد عن الكمال. وينبغى أن يعود الباحثون إليه من جميع وجوهه بالتعديل أو التنقيح أو الزيادة، ولكنه بحث علمى فى روحه.

ومهما يلحظ الناس فيه من ثغرات ومهما يتبينوا فيه من غلطات فإنى أكون مغتبطًا إذا وافقنى القارئ على الأمرين التاليين:

الأول: أن علم الأخلاق ليس إلا وهمًا، فى حين أن أخلاق العلم شىء واقع وحقيقة حاصلة.

الآخر: أن أخلاق العلم هذه كما نستطيع أن نراها اليوم تعدل فى جمالها أو تتجاوز ما قدمه المفكرون لنا من مذاهب الأخلاق قبل العصر العلمى وهى أيضًا قادرة على أن تنظم حياتنا وأن تثير حماستنا.

الفَصلُ الخَامِسُ

كرامة الفكر

أول فكرة ينطوى عليها تقدم العلم نفسه هى أن الكرامة الإنسانية عبارة عن جهد العقل لبلوغ الحقيقة.

وليس من المهم أن يقول لنا العلماء هذا: ففى سيرتهم تأييد للفكرة. لنعتبر جميع هؤلاء الرجال الذين أقبلوا على دراسة الطبيعة وكانوا بالأمس قلة وهم اليوم نفر عديد. ما الغاية التى ينشذونها من جهودهم؟

غايتهم كما قلنا هى المعرفة ولا شىء غير هذا. ذلك أن العلم، العلم الصحيح بحث مبرأ من الأغراض، لا يعنيه حيث يرى مشكلة أن يعرف هل يكون لحلها نتائج عملية أو لا يكون، ولا يبالى إلا بأن يستعيض عن جهل بعلم. وهذا ما أبدع فى بيانه مسيو «لانچڤان»[1] فى محاضراته القيمة عن العلم ومذهب الحتمية، إذ نهض فى قوة

(١) «لانچفان» Langevin عالم فرنسى من علماء الطبيعة المعاصرين وأستاذ علم الطبيعة فى «الكليج دو فرانس». له مباحث مشهورة عن نظرية الإلكترون وعن الكهرباء ـ المعرب.

محتجًا على ما سماه «النظرة الظاهرية للعلم» وعلى أولئك الباحثين من علماء الطبيعة الذين يريدون أن يقنعوا بمشاهدة الوقائع والتكهن بها، ويأبون أن «يفسروا»، أى يأبون بعبارة أخرى أن يفهموا. وقد قابل «لانچفان» فى تلك المحاضرات بين أصحاب المبدأ المشهور مبدأ «اللاتحديد» "indetermination" وبين «المفسرين الذين لا يرعوون» (les explicatifs impenitents) أمثال «أينشتين»، مبينًا أن هؤلاء المفسرين وحدهم «فى الطريق الملكى لعلم الطبيعة»! ولم؟ لأن فوق الفائدة العلمية التى يمكن أن تقنع بالتكهن يوجد «هذا النوع من الاستطلاع البسيط المركوز فى نفوسنا، والذى يحثنا على محاولة الفهم، ولو لم يكن ينفعنا فى شىء».

لعل أجمل وأروع الكشوف العلمية ما تم منها فى علم الفلك. فما التطبيقات العملية التى خرجت من تلك الكشوف؟ لم ينتج عنها بعد أية آلة من شأنها أن تبدل أحوال معاشنا. وهذه الكشوف مع هذا نموذج للانتصار العلمى. ولم؟ لأنها غيرت فكرتنا عن الكون، ولأنها جعلت الغلبة للعقل فى مجال كان يبدو بعيدًا عن متناول العقول.

والعلم إنما هو هذا السلطان، سلطان العقل، وهذا الجهد المبذول لتناول الوقائع وترتيبها فى عالم المعقولات. هذا شأن العلم: فالمعرفة هى الغاية الوحيدة عند عالم الطبيعة أو عالم البيولوجيا أو عالم الاجتماع. وما معنى هذا إلا أن هؤلاء الباحثين جميعًا أصحاب مثل أعلى واحد يجعل الصدارة للعمل المظفر عمل الفكر؟

حق أنه يبدو أن هذا المثل الأعلى مشترك بين العلماء والفلاسفة والمؤمنين بالأديان. ولكنا متى تعمقنا النظر إلى الأشياء ظهر لنا فارق كبير فى الجوهر.

صحيح أن أهل الإيمان والفلاسفة قد يوافقون «پسكال»[1] على أن كرامتنا كلها فى الفكر؛ وهم بهذا لا يبتعدون عن العلماء؛ ومن أجل هذا كانوا أسلافًا للعلماء مهدوا لهم الطريق. ولكن إذا كان أولئك وهؤلاء لا يجدون عسرًا فى الاتفاق على أن «الصدارة لما هو روحى» فإن اتفاقهم يقف عند هذا الحد: لأن العلم يرى البحث شيئًا لا متناهيًا، ويجعل عظمتنا فى هذا الفتح الذى لا يعرف له حدًا. أما الأديان، بل المذاهب الفلسفية، فلاهتمامها بما هو مطلق، تحاول أن توقف الذهن عند مواضع حاسمة لا يبرحها.

كلنا نعرف عن ظهر قلب الصفحة العظيمة التى كتبها «پسكال»، وقال فى مطلعها: «فليتأمل الإنسان الطبيعة بأسرها فى جلالها البالغ السمو والتمام!..» ذلك مطلع أملته روح عالم؛ وتلك الروح نفسها هى التى سادت «پسكال» حين حاول أن يذكرنا بما فى الوجود من ثراء لا ينفد. ولكن پسكال بعد أن وثب وثبة رائعة، فحمل

(١) «پسكال» Pascal (١٦٢٣ - ١٦٦٢) فيلسوف فرنسى وعالم عبقرى وكاتب منقطع النظير. نبغ فى الرياضيات والطبيعيات؛ واخترع آلات عدة فى جملة أغراض؛ وقام بتجارب مشهورة عن ثقل الهواء وغير ذلك. ويعد كتابه «الرسائل القروية» الذى شنع فيه على أخلاق اليسوعيين وسياستهم، نموذجًا للهجاء، لما تجلى فيه من فصاحة العبارة وقوة المنطق وبراعة السخرية. أما كتابه: «الخطرات» فعبارة عن مواد جمعها التأليف كتاب كبير كان يرمى منه إلى تشكيك الناس فى العقل وفى العلم لكى يلقوا بأنفسهم فى أحضان الدين. ـ المعرب.

أذهاننا من اللامتناهى فى العظم إلى اللامتناهى فى الصغر، ومن الأكوان الملموحة إلى الذرات المتوهمة، شعر بما أرهقه من عبء، فعدل عن السير، وأخذه الخوف فكتب: «من نظر إلى نفسه على هذا النحو ملك الفزع عليه قلبه... فارتعد من تكشّف هذه العجائب. وأحسب أنه متى انقلب استطلاعه إعجابًا صار أكثر استعدادًا لتأملها فى صمت من البحث عنها فى زهو وعُجب..» ويمضى پسكال فى منطقة هذا فيقول. «لا بدَّ من معارضة من يتعمقون العلوم أكثر مما ينبغى، أمثال ديكارت»(١).

هكذا يتقاعد پسكال عن جهد يبدو له غير محدود، ويعتصم بالحقائق التى يجىء بها الدين: فتلك حقائق أقل ما فيها أنها حافلة وافية مطلقة حاسمة. ولكى يحطِّم الوثبة الباطنة التى دفعت به بادئ الأمر إلى غزو الكون العقلى، كان لا بدَّ له، وهو ذلك العالم العبقرى، من بذل جهد عنيف أليم. وبهذا الجهد نستطيع أن نقيس المسافة الفاصلة بين المثل الأعلى اللاهوتى والمثل الأعلى العلمى: ففى مجال اللاهوت يمتلك الإنسان الحقيقة، ويستمتع بهذا

---

(١) «ديكارت» Descartes (١٥٩٦ – ١٦٥٠) أكبر فلاسفة الفرنسيين، ومن أقوى العبقريات الفكرية فى جميع فروع المعرفة الإنسانية، كان عالمًا هندسيًا كبيرًا: اخترع الهندسة التحليلية؛ وكان عالمًا طبيعيًا كبيرًا أيضًا: كتب الرسائل فى «البصريات» و «الآثار العلوية» و «الميكانيكا». ويعد ديكارت زعيم المذهب العقلى فى الفلسفة؛ وهو أول من ألف المؤلفات الفلسفية باللغة الفرنسية، وأشهر كتبه: «المقال فى المنهج» و «التأملات» و «رسالة الانفعالات». ويلقب ديكارت بـ «أبى الفلسفة الحديثة» ؛ وأغلب الفلاسفة المحدثين مهما تختلف نزعاتهم وتتشعب طرقهم، هم تلاميذه وأبناؤه الروحيون. ـ المعرب.

الامتلاك؛ أما فى مجال اللاهوت فيطلب الإنسان الحقيقةَ ويستمتع الذهن بهذا الطلب نفسه. واللاهوت يجعل الكرامة الإنسانية فى تلك الراحة التى يفيضها على النفس يقينُ الإنسان بأنه يعرف كل ما يهمّه؛ فى حين أن العلم يضعها فى تلك الوثبة التى يولدها اليقين بأن الإنسان محتاج دائمًا إلى أن يتعلم.

يقع پسكال بين هذين المثلين الأعليين، فيتردّد ويتألم، وينتهى به الأمر إلى أن ينحاز إلى جانب الاعتقاد. لقد كانت مجتمعاتنا الغربية نفسها، قبل القرن السابع عشر بزمان طويل، تواجه المشكلة عينها: كان يوجد فى العصر اليونانى الرومانى رغبة قوية دفعت العقول إلى البحث عن الحقائق العلمية. وكانت تلك الرغبة لاتزال ذات تأثير فى العهد الذى كانت فيه «المدرسة الإبيقورية»(١) تجاهد لتحصيل صورة عقلية للكون. ثم فترت تلك الحماسة الجميلة؛ حتى أن التمدن القديم لما دخل بلادنا فقدَ نوازع الفتح العقلى، ووقف تقدم العلوم، وانثنى الفكر على نفسه. فلِمَ كان هذا؟

لا يستطيع المؤرخ إلا أن يلاحظ أن ذلك العصر الذى انحط فيه الروح العلمى هو العصر عينه الذى برزت فيه على مسرح العالم

(١) «المدرسة الإبيقورية» L'ecole epicut ienne سميت كذلك نسبة إلى «إبيقور» الفيلسوف اليونانى المشهور (٣٤١ - ٢٧٠ ق. م). شهد إبيقور فى شبابه ما ينجم عن الخرافات من أذى وبلاء، فأراد أن يخلص الناس منها بالفلسفة وأقام لذلك مذهبًا من ثلاثة أجزاء: جزء فى المنطق وهو ذو طابع حسى؛ وجزء فى الطبيعة، وهو نظرية فى الذرات منقحة، وجزء فى الأخلاق وهو أخلاق اللذة، ولكنه يقصد لذةً مختارة ومفهومة على وجهها الصحيح. كان «إبيقور» رجلاً صالحًا حسن السيرة. وكان حكيمًا فى حياته وفى موته أيضًا. ـ المعرب.

الرومانى الأسرارُ التى جاءت من الشرق: ذلك أن «إيزيس»(١) و «قيبيل» Cybele(٢) و «أتيس» Attis(٣) و «مِثرا» Mithra(٤) ـ وهى طلائع المسيحية ـ لا تكتفى بأن تكفل للناس الخلاص والنجاة والوعد بالنعيم المقيم فى دار الخلود، بل تعطيهم أيضًا تفسيرًا للعالم وعلمًا فلكيًا مقدسًا حاسمًا يمكن أن يُلَقَّن فى بضع ساعات. بين هذه الضروب من الوحى والإلهامات التى تقدم الغبطة الوادعة غبطة اليقين الذى يناله الإنسان بغير جهد، وبين المناهج المتشددة التى تدعو إلى دراسة الوقائع وتقصد إلى المشكلات المتجددة بلا انقطاع، وقف العالم الرومانى فصنع ما صنعه پسكال من بعدُ: اختار الراحة. وصُبَّت اللعنة على المدرسة العظيمة «الإبيقورية» من المسيحية المنتصرة ومن «چوليان الرافض»(٥). وتغلب المثل الأعلى الذى رسمته «الأسرار». وكان لا بد من انقضاء قرون قبل أن يستيقظ المثل الأعلى الآخر ويثأر لنفسه.

---

(١) «إيزيس» إلهة مصرية قديمة: أخت «أوزيريس» وزوجته وتمثل فى الأساطير المصرية وفاء الزوجة ووفاء الأمومة. وبهذا السمو الأخلاقى تتميز «إيزيس» عن آلهة الأسيويين واليونانيين الذين كانوا فى الغالب ميالين إلى الخلاعة والفسوق ـ المعرب.

(٢) «قيبيل» Cybele أم الآلهة فى الأساطير اليونانية والرومانية.

(٣) «أتيس» Attis. أحد الرعاة فى الأساطير اليونانية. خان «قيبيل» فعاقبته بأن جعلته شجرة صنوبر.

(٤) مثرا» أحد آلهة «الأفستا» فى دين الفرس القدماء، ويمثل النور والحقيقة.

(٥) «چوليان الرافض» Julien l' Apostat إمبراطور رومانى عاش فى القرن الرابع المسيحى: أراد أن يعيد الوثنية القديمة.

وقد تبدو الفلسفة لأول وهلة أقل بعدًا من المثل الأعلى العلمى، لأنها هى أيضًا تزهو بأنها فتح وغزو. ومن أجل هذا وجدنا بينهما من بعض الوجوه أمثلة من الاتفاق العميق. ولكن الفيلسوف كاللاهوتى شغوف باليقين التام المباشر، ويلزمه مذهب ضافٍ حاسم. وهو يرضى أن يستند إلى العلم، ولكنه كثير الجزع قليل الصبر إذا لم يجد جوابًا على كل شىء؛ يريد أن يسبق العلم، ولكنه يُلجمه لكى يسبقه.

لا أعرف مثالاً على هذه الحالة النفسية أجلى من مثال «أوجست كمت»[1]. كان أكبر ما شغله أن يعطى العالم الحديث عقيدة جديدة وقوة روحية جديدة، فالتفت إلى العلم، ووسع مجاله بما أبدعه فى علم الاجتماع، وقطع علائقه باللاهوت، وطلق الميتافيزيقا. ولما تم له ذلك شرع فى إقامة الفكر والعلم على قواعد وضعية. غير أنه هو أيضًا بقى فى هذا فليسوفًا، فأراد شيئًا حاسمًا. ولكن بينا كان هو يبنى ويتوقف ويشرّع، كان العلم يتحرك ويتقدم ويقلب حقائق الأمس. فيضيق «كمت» بهذا ذرعًا وينتهى به الأمر إلى أن يضع الحدود لتطور علم الفلك، وإلى أن يستنكر الرياضيات التى تجفّف الروح، وإلى أن ينصح بأن لا تقرأ «محاضراته فى الفلسفة الوضعية» لأن امتلاك المذهب الصحيح ينبغى أن يكفى تلاميذه، كما ينبغى أن يكون الإيمان بالعقائد كافيًا للاهوتيين والمؤمنين.

(١) انظر هامش (٤) ، ص ٦٤.

وإذن فمثال أكبر فلاسفة العصر الحديث. يعيننا على أن نفهم أصالة المثل الأعلى الذى يستلهمه العلماء: فالعلماء كأولئك الذين سبقوهم ومهدوا لهم الطريق يجعلون الفكر صميم الكرامة الإنسانية، ولكنهم يرون ذلك الفكر وثبة موصولة وبناءً تدريجيًا لا حد له. وهذا السير الظافر للعقل، وهذا «العدول عن الراحة» هما فى نظر العلم مدار عظمتنا الحقيقية.

أنحن بحاجة إلى أن نبيّن ما يمكن أن يكون لذلك المثل الأعلى الذى يتضمنه النشاط العلمى من أثر فى حياة الجماعات؟ أعتقد أن ذلك الأثر يتلخص فى جملة: متى كانت الكرامة الإنسانية فى صميمها عبارة عن الجهد الموصول للمعرفة فإن مهمتنا الأولى أن نعمل بحيث يكون للناس جميعًا نصيب فى هذه الكرامة.

ويبدو لى أن من شأن هذه الفكرة وحدها أن تغير وجهة نظرنا الراهنة إلى أهم المشكلات العملية:

إن الحاجات المادية التى لم يتيسر لنا بعدُ أن نرضيها، قد تحمل كثيرًا من الناس على الاعتقاد أخيرًا بأن مهمتنا الجوهرية هى النظام الاقتصادى، وتكاد تسوقهم إلى أن يروا فى الإنسان آلة للإنتاج وآلة للاستهلاك، وتجعلهم يظنون أن الإنسان يكون قد قام بأكبر قسط من الجهد الإنسانى يوم يتهيأ للناس جميعًا أن يعيشوا فى ميسرة ورفاهية.

أما الأخلاق التى يستوحيها العلم فترمى إلى شىء أسمى من هذا: إنها تدعونا إلى أن نضع الاستمتاع الأعلى الذى هو المعرفة فى المرتبة الأولى عند جميع الأفراد.

أمعنى هذا أن هذه الأخلاق لا تعبأ بالتحرر الاقتصادى؟ كلا. بل إنها تتطلبه وتتطلبه فى إلحاح، لأن ذلك التحرر هو الشرط الضرورى الأول للتحرر العقلى. إنها لسخرية منكودة أن نقول لعامل يعود إلى منزله بعد أن أضناه كد آلى، ورجل يأوى بعد الفراغ من عمله إلى مسكن قذر لا يدخله النور ولا الشمس: اشترِ كتبًا وثقِّفْ نفسك! إننا إذا استثنينا بعض الأبطال الذين تعذبهم فكرة ما وجدنا أن العمل العقلى يقتضى شيئًا من الاستقلال عن الهموم المادية: فلا يجوز أن نطالب من يكافح البؤس ساعة بعد ساعة أن تكون لديه حرية الذهن اللازمة للدراسة أو البحث. وإذن فالميسرة والفراغ يجب أن يكونا مكفولين، لا لبعض الناس بل لهم جميعًا. ولكن هذا التحرر من نير المادة ليس غاية فى ذاته، إنما هو وسيلة: هو الوسيلة لبلوغ حال يستطيع كل إنسان فيها أن يسهم بنصيب فيما يقوّم عظمة الإنسان.

وحيث يسود هذا المثل الأعلى المتضمن فى العلم، لن يقاس تمدن شعب من الشعوب بمقياس يقتصر على ما يبذله من جهد للتوسع فى الصناعة أو التجارة، بل يقاس تمدنه على الخصوص بما يحاول من جهد لنصرة البحث العلمى البرئ، ولإذاعة ما كان يسميه فلاسفة القرن الثامن عشر باسم «الأنوار».

نعم إننا سرنا خطوات فى هذا السبيل. ولكن ما أبطأها من خطوات! سيكون موضعًا من مواضع الدهشة عند العصور المقبلة أن تَبسط مجتمعاتُنا الغربية أيديها بالمال الوفير لإعداد معدات الهلاك

وأن تقتّر أشد التقتير حين يُطلب إليها أن تؤدى المهمة الكبرى، وهى تعميم المعارف الإنسانية. إن الذين يطلبون المال اليوم للبحث العلمى مضطرون إلى أن يصطنعوا بعض الحيلة، فتراهم ينوهون إما بأنه مطلوب لمعاونة الصناعة، إما بأنه لازم لجعل الحرب أشد فتكًا. فما أعجبه من انقلاب فى القيم! يضطر الناس إلى التماس الأعذار عند تقديم المعونة إلى الأمر الذى فيه كرامتنا، ولا يريدون أن يدركوا أن مصلحتنا العليا فى أن نكون أبرياء من كل غرض.

وكذلك شأن التعليم: إن من دواعى الفخر لعصرنا هذا أنه بدأ يعمل على إذاعته وتوسيع نطاقه. ولكن الناس يرون التعليم فى أغلب الأحيان سلاحًا ضروريًا للنضال من أجل الحياة، وإعدادًا فنيًا لمهنة من المهن. أما أن العلم يمكن أن يكون هذا فمعلوم لكل واحد. ولكن العلم أولاً وخصوصًا هو شىء آخر؛ ومَن أحبه لذاته فقد آثر ما هو خير وأهدى سبيلاً. وإذن فليست المشكلة الكبرى ولا المشكلة الحقيقية هى أن نُعطى الطفل واليافع ذخيرة من المعرفة نافعة، وإنما هى أن نيسّر لجميع الأفراد أن يتذوقوا أمور الروح، وأن يقدروا الحقيقة التى قام عليها الدليل. ولفظ «البيداجوچيا» نفسه، إذ يقصر أمر التربية على الأطفال، يبيّن إلى أى مدى مازلنا دون مثلنا الأعلى هذا: لأنه إذا كان مدار كرامتنا على المعرفة، أفليس واضحًا إننا ينبغى أن نتعلم فى كل سن، وأن من حق الكهول في هذا الاعتبار أن ينالوا العناية التى يظفر بها الشباب؟ ولكنا نرى على الرغم من هذا أن أول جهودنا بهذا الصدد ضئيلة لا وزن لها. ليس

لنا أن نزعم أننا نذيع فى العالم فتوحات العلم والروح العلمى. إن «الاتحاد العقلى» "L'Union Rationaliste"(١) قام إلى حد كبير مناهضًا لهذه الحال من قلة المبالاة. وقد كانت أكبر عنايته أن يعطى كل إنسان يهمه أن يتعلم، الوسائلَ اللازمة للوقوف على الروح العلمى. وحبذا لو بلغت تربية الكهل من القداسة عند المجتمع ما بلغته مهمة تربية الطفل.

نعيد ما سبق أن قلنا من أن صميم أى مذهب من مذاهب الأخلاق تصوره لمجتمع أفضل.

ولكن إزاء قلة المساواة التى هى القانون المنكود للحياة الاقتصادية وإزاء البؤس الذى ما فتئ مخيمًا على ملايين البشر، عُنى كثير من الناس من ذوى القلوب الكريمة بالمشكلات المادية عناية خاصة، وتمنوا عالمًا يكون فيه إنتاج الثروة وافرًا وتوزيعها عادلاً. وكل إنسان ذى قلب ينبغى أن يشاركهم فى هذه الرغبة يعمل على تحقيقها. ولكن المثل الأعلى الذى يتضمنه العلم يدعونا إلى أن لا نرى فى التحرر الاقتصادى إلا مرحلة أولى. وينبغى علينا منذ اليوم أن نرنو بأبصارنا إلى أبعد وأسمى: فإن عالمًا ثريًا وسعيدًا بثرائه فحسب، ليس بعدُ إلا عالمًا بائسًا. أما ما نحلم به نحن فهى مجتمعاتٌ توزّع على الناس جميعًا ضروب الثقافة ومناهج المعرفة، وإنسانية قد تحررت من المشاغل المادية، فاستطاعت أن تفرغ لتوفير كرامتها، أى لتوفير معارفها.

---

(١) «الاتحاد العقلى» جماعة من العلماء والأساتذة مركزها باريس تألفت للسعى إلى تحقيق الإصلاح الاجتماعى عن طريق نشر الثقافة العلمية فى جميع البيئات.

الفَصلُ السَّادِسُ
مبدأ الوفاق

المثل الأعلى الثانى الذى ينطوى عليه النشاط العلمى هو الوفاق والائتلاف. ليس العلم ابتداعًا عقليًا شخصيًا قد يعجب هذا ولا يعجب ذاك، أو يقنع واحدًا ولا يقنع آخر، وإنما قانونه أن يؤلف بين العقول فى كل مكان.

وليست هذه الرغبة جديدة: فقبل العلم قامت أديان وفلسفات لم تخلُ من رغبة فى التأليف بين النفوس وإشراكها فى تقديس حقيقة واحدة. ولكن ما الذى حدث لهذه المطامع الضافية؟

فى هذه البلاد التى نعيش على أرضها أقبل دين «الدرويد»(١) ودين «أغسطس»(٢) ودين «قيبيل» ودين «مِثرًا» لفتح العالم. وقد

(١) «الدرويد» Les Druides قساوسة فى دين الغاليين القدماء؛ ولم يكن لهم معابد، وإنما كانوا يجتمعون فى الغابات، وكانوا عند اشتداد الخطوب يقدمون ضحايا من البشر تكفيرًا عن الذنوب. ولما دخل الرومان بلاد الغال قضوا على دين الدرويد. ـ المعرب.

(٢) «أوغسطس» Auguste إمبراطور رومانى من أقرباء يوليوس قيصر. كان اسمه أولاً «اكتافيوس» ثم أبدل بأوغسطس. تولى الحكم الثلاثي مع «أنطونيو» و «لبيدوس» ثم استقل بالأمر بعد موقعة اكتيوم. وكان عهده من أزهى عضور رومة (٦٣ ق م - ١٤ م). ـ المعرب.

انقضت هذه الأديان كلها ولم تعدُ اليوم إلا موضوعًا لدراسة المؤرخ: ونهضت المسيحية بدورها فقدّمت ـ كما ورد فى الإنجيل الرابع ـ «النور الحقيقى الذى يهدى كل إنسان يأتى إلى هذه الدنيا». ولكن هذا النور لم يقبله الناس جميعًا وإن كان قد قدم إليهم أجمعين: فلم تجتذب المسيحية إليها بنى إسرائيل ولا المسلمين، ولم تستطع أن تحمى نفسها مما توالى عليها من هجمات المنكرين. وقد ظن رجال الإصلاح الدينى أن تجديد المسيحية يجعلها دينًا عامًا شاملاً، فكان كل ما وفقوا إليه أن شطروا العالم الكاثوليكى القديم شطرين. وعندئذ نهض مفكرون فأدلوا بدلوهم فى الدلاء، فظهر دين «ڤلتير»[1] ودين روسو»[2] الطبيعى والمسيحية الجديدة عند «سان سيمون»[3] والدين الطبيعى عند «أوجستُ كمْت». وكانت رغبتهم جميعًا أن يؤلفوا بين الناس، وتجلت عندهم جميعًا أفكار طيبة

---

(١) «ڤلتير» Voltaire (١٦٩٤ - ١٧٧٨) من أكبر كتاب فرنسا. كانت حياته الطويلة حافلة بالأحداث والمغامرات. من كتبه التاريخية «عصر لويس الرابع عشر» و «شارل الثاني عشر» وله «القاموس الفلسفي» المشهور، وكتابات «ڤلتير» تغرى بالقراءة لطلاوتها وتنوعها، ولما فيها من تهكم لاذع وما تقبض به من حب للحرية والتسامح ـ المعرب.

(٢) «روسو» Rousseau كاتب فرنسي كبير، أولع يحب الطبيعة والخير والحرية، وكان له أثر بعيد فى أهل عصره. أهم كتبه «العقد الاجتماعى» الذى كان له أثر مباشر فى الثورة الفرنسية، نقم روسو على ما رآه من فساد المجتمع فى زمانه، فكان يحلم بإصلاحه والعودة بالناس إلى حال الفطرة الخالصة من شوائب المدنية ـ المعرب.

(٣) «سان سيمون» Saint - Simon (١٧٦٠ - ١٨٢٥) مصلح فرنسي صاحب مذهب اشتراكى وفلسفة دينية وضعية، وقد أخذ عنه «أوجست كمت» وتأثر به. ـ المعرب.

كريمة جريئة؛ ولكن ظهر أيضًا عندهم جميعًا عجز عن التوفيق بين النفوس والحصول على ذلك الإجماع على الرأى الذى هو شرط للشمول والكلية. لقد نظرنا إلى فرنسا؛ ولكنا إذا نظرنا إلى بلاد العالم الأخرى شهدنا عينًا ما شهدنا فى فرنسا: إن الأديان الكبرى قد تنازعت الوجدان الإنسانى. ولكن حدث مفارقة مثيرة للأسى: فقد حملتها نفسُ رغبتها فى جَمع الكلمة على مناضلة بعضها بعضًا، ودفعت إرادةُ الاتحاد بالناس إلى المعركة!

فهل كان الفلاسفة أسعد حالاً؟ قد نكون أميل إلى الاعتقاد بهذا، مادام كثيرون من الفلاسفة يفخرون بأنهم يصطنعون العقل وحده. ولكن إخفاقهم ـ على نحو ما ـ كان أجلى وأخطر من إخفاق الأديان. ففى حين أن بعض المعتقدات تسوق ملايين من النفوس إلى التحمس لها والذود عنها، وفى حين أن الدين البوذى والمسيحى والإسلامى قد غزا كل منها أرجاء فسيحة من العالم، نجد فى أثينا الصغيرة سقراط[١] يصطدم مع السفسطائيين[٢] وأرسطو مع

(١) «سقراط» (٤٧٠ - ٤٠٠ ق م) حكيم اليونان الكبير. لم يودع تعاليمه الكتب والأوراق وإنما حفظ عنه تلاميذه ذكريات محادثاته مع الناس من مختلف الطوائف. كان سقراط من أوائل من تكلموا فى خلود الروح وفى الواجب وفى العناية الإلهية. وهو مؤسس علم الأخلاق ومنشئ الفلسفة المثالية وفلسفة الصورة التى سيطرت على التفكير فى القرون الوسطى بجهود أفلاطون وأرسطو والإسكندرانيين. وقد بلغ أثر سقراط فى الأجيال الإنسانية أثر الأنبياء وأصحاب الأديان. ـ المعرب.

(٢) «السفسطائيون» جماعة من خطباء اليونان عاشوا فى القرن الخامس قبل الميلاد. لم يكونوا يحفلون بالحق من حيث هو فاستخدموا مواهبهم الكلامية فى مناصرة أية دعوى وترجيح أى رأى، لا يبالون إلا بالنجاح والتغلب على الخصوم. وملخص مذهبهم إنكار ما يسمى بالحق أو العدل المطلق، إذ الإنسان عندهم مقياس لجميع الأشياء. وقد حمل سقراط على السفسطائيين وفند أقوالهم. ـ المعرب.

أفلاطون. وفى زمن واحد وتحت سماء واحدة قامت الرواقية معارضة للإبيقورية، والدجماطيقية معارضة للارتيابية[1]، والحرية مناهضة للجبرية، والمذهب العقلى مناوئًا للمذهب البراجماطيقى[2]. وأشد ما يدعو إلى القنوط أن هذه المذاهب التى وقفت يعارض بعضها بعضًا فيها كلها ما يخلب النفوس، ويحملها على السير معها. أعتقد أن من العسير على إنسان أن لا يحب أفلاطون وأن يأبى أن يتابعه حتى فى السبل التى يسلكها فكره الجرىء. ولكن من الحق أيضًا أن «سبينوزا»[3] إذا استولى على شخص أخذ بتلابيبه وساقه حتى نهاية الطريق الذى رسمه. ثم نقرأ «كانْت» و «أوجست كمت» وغيرهما فتملك عبقرياتهم نفوسنا فإذا نحن لها صاغرون. ولكن تعاقب اعتناقنا لهذه النظريات المتناكرة فخر للفلاسفة ودمار للفلسفة: لأننا قد سلكنا الطريق مؤملين أن

---

(١) «الدجماطيقية» Dogmatisme و «الارتيابية» Scepticisme مذهبان متعارضان: الأول يرى للعقل الإنسانى قيمة مطلقة ويعتقد بإمكان الوصول إلى اليقين. والآخر ينكر إمكان العلم، ويشك فى معرفة الحقيقة معرفة يقينية. ـ المعرب.

(٢) المذهب «البراجماطيقى» Pragmatisme مذهب فلسفى نادى به «وليم چيمس» الأمريكانى، وخلاصته أن جميع الحقائق الأساسية هى معتقدات عملية؛ وأن فكرنا كله ينزع دائمًا إلى العمل ولا يبرأ من الغايات؛ وأن معيار الصدق والحق فى كل فكرة أو رأى هو المنفعة العملية، وأن المعتقد يكون حقًا بقدر ما ينجح وفى الزمان الذى ينجح فيه. ـ المعرب.

(٣) «سبينوزا» Spinoza (١٦٣٢ - ١٦٧٧) من أكبر فلاسفة العالم، كانت حياته حياة زهد وتأمل. بدأ من فلسفة ديكارت والفلسفة اليهودية وانتهى إلى القول بوحدة الوجود. قال فيه بعض الكتاب إنه «رجل سكران فى الله». أشهر كتبه: «الأخلاق» و «رسالة عن الله والإنسان والنعيم» و «الرسالة الدينية السياسية». ـ المعرب.

نصل إلى نظرية واحدة لا يدانيها غيرها فيلتقى الجميع عندها إخوانًا متصافين. غير أن المسالك التى كانت تبدو مؤدية إلى تلك النظرية قد بلغت من التباعد والاختلاف حدًا يترك الإنسان، على شدة ما عانى من تعب وطول مطاف، أكثر زلزلةً وارتيابًا، ويدع الناس أشد تفرقًا وانقسامًا.

ومعقد الطرافة فى العلم أنه يبدو، وسط هذه الانقسامات، عاملاً فعالاً على جمع الكلمة والوفاق. إن غير العلم يدعو إلى الاتحاد، أما هو فقد أوجده. فى العلماء كاثوليكيون وبروتستنتيون وإسرائيليون، وفيهم إنجليز وألمان وفرنسيون. ولكن ليس هناك هندسة كاثوليكية أو بروتستنتية أو إسرائيلية، ولا علم طبيعة ألمانى أو إنجليزى أو فرنسى! والفكرة نفسها سخيفة. وقد نتصور أقوالاً دينية أو فلسفية تتصل اتصالاً وثيقًا بالهند أو بالغرب، ولكنا لا نتصور برهانًا من براهين علم الرياضة يكون عند المسيحى غيره عند البوذى، ولا نتصور تمحيصًا تجريبيًا مما يقوم به علماء الطبيعة يكون مقبولاً عند المعجب بفلسفة «كانْت» ولا يكون مقبولاً عند المعجب بمذهب «سبينوزا». بل إن الفلاسفة الذين يتجادلون اليوم فى أمر العلم وهل له قيمة مطلقة أم لا، هم على الأقل متفقون على العناصر التى يتكون منها العلم، وليس بينهم خلاف إلاّ على الحدود التى يقف عندها سلطانه، أما هذا السلطان نفسه فلا يتنازعون فيه.

لقد بلغ من اعتيادنا لهذا الوفاق الذى مصدره العلم أن أصبحنا لا نُلقى إليه بالاً، وأصبحنا نتكلم عنه كما نتكلم عن أمر بسيط جدًا،

بل قد لا نتكلم عنه إطلاقًا. ولكن لنرجع بالأمر إلى التاريخ الإنسانى: بذل المنقطعون للبحث غاية وسعهم، مدى قرون عديدة، لكى يكتشفوا مبدأ يستطيع أن يؤلف بين الناس؛ وأنفقوا فى هذا الجهد ما يملكون من مواهب وعبقريات؛ وطرقوا كل باب من أبواب النفس. ولكن الوفاق المنشود لم يتحقق فى أى مجال، بل عظم الخلاف واشتدت مرارته حتى ضاع الأمل فى حصول الإنفاق. وبينا الناس على هذه الحال إذ ظهر حدث جديد، حدث عقلى ضاف، أخرج دون قهر ولا اضطرار، مجموعةً من المعارف اليقينية مشتركة بين الناس، وجعل حقيقة واقعة ما كان يبدو أمرًا مستحيلاً. كانت الحدود الدينية والفلسفية والسياسية والاقتصادية تبدو على الدوام مفرقة للناس؛ وإذا بحقيقة تظهر فتتجاوز تلك الحدود، لأنها لم تعد حقيقة شعب من الشعوب ولا جنس من الأجناس: إنها نور يهدى كل إنسان يأتى إلى هذا العالم، كما ورد فى كلمة الإنجيل الرابع.

نتصور الآن المعنى الأخلاقى لكل هذه القواعد الدقيقة التى تسيطر على العمل العلمى. إذا كان العلم يفرض على نفسه هذه الاحتياطيات الكثيرة فذلك لأنه لا يبغى أن يصل إلى الحقيقة فحسب، وإنما يريد أن يبرزها للناس أجمعين. لا يكفيه أن يؤمن الناس بما يقول، بل يود ألا يصدقوه إلا عن أدلة ذات وزن ورنين. فهذه البراهين المضبوطة وتلك التمحيصات التى تمت بعد جهد جهيد لا تطيقه أحيانًا روح الرقة أو الروح الشعرية، هى أسمى صورة من صور الإيثار: إنها تنطوى فى وقت واحد على موافقة الغير على الأشياء الجوهرية، والرغبة فى أن لا تكون تلك الموافقة

موافقة المفاجأة، ولا أن تكون تقربًا طارئًا، بل أن تكون تعبيرًا متينًا عن مشاركة حقيقية.

إن احترام الإنسان لأخيه الإنسان وحبه إياه هما روح البحث العلمى، لأن المرء لا يستطيع أن يهب غيره من الناس هبةً أثمن من أن يقدم لهم حقيقة تصبح ملكًا لهم، وتجعلهم ـ بأرفع ما تنطوى عليه نفوسهم ـ إخوانًا متآلفين.

لا حاجة بنا إلى أن نتوسع فى بيان النهج الذى يسلكه هذا المثل الأعلى المتضمن فى العلم، ولا القبلة التى يوجه حياة الناس إليها: يصبح التماس الوثام بالروح مبدأ من المبادئ العليا للأخلاق، وتكون خطتنا الكبرى فى محبة بعضنا بعضًا أن يقنع بعضنا بعضًا فى أى مجال مهما يكن. إن الاتفاق القائم على القوة واهٍ، لأن القوة لا تبلغ منا ما هو فى الصميم؛ والاتفاق القائم على المصلحة لا يمكن أن يكون إلا وضيعًا جزئيًا، لأن الإنسان لا يكون عظيمًا إلا بالأشياء المبرأة من المصلحة؛ والاتفاق القائم على العاطفة أنبل ولكنه هزيل، لأن العاطفة عمياء أحيانًا. أما الاتحاد الذى منشؤه الرضا والإذعان لحقيقة أيدها البرهان السليم فأساسه متين وليس للصدفة عليه من سلطان.

إننا اليوم لم نتفق إلا على جملة من الحقائق المتصلة بالمادة وبالحياة، ومن نكد الحال أننا فى كل ما عدا ذلك نجد أنفسنا مضطرين إلى البت فى مشكلات لم يمسها العلم إلا مسًا رفيقًا. من أجل هذا كنا متفقين فى بعض الأمور مختلفين أشد الاختلاف فى

أمور أخرى. وأقل ما يقال إن المثل الأعلى المنطوى فى النشاط العلمى يدلنا على الطريق الذى ينبغى أن نسير فيه لتلطيف حدة هذا الاختلاف: وهو أن نزيد عدد الحقائق اليقينية المشتركة، وأن نطلب إلى العقل فى جميع المناظرات أن يعطينا مبدأ الإنفاق.

إننى مازلت أذكر واقعة حدثت عقب الحرب العالمية هى فى نظرى مما يهز القلوب ويحمل مغزى كبيرًا: كانت حفائظنا مستثارة لقرب عهدنا بما أصابنا جميعًا من أرزاء الحرب. وكان بعض الضالين من أصحاب النظريات يدعون إلى تذكر الأحقاد، بل كان من الفلاسفة من جعلوا همهم النيل من فلسفات ما وراء الدين. وجاء «أينشتين»[1] إلى باريس ليبسط بنفسه مذهب النسبية. لا أدرى أصحيح ما قيل من أن بعض العلماء عندنا بدا لهم أن يعارضوا فى مجيئه، ولكن الذى أعلمه، لأنى رأيته بعينى، هو أن «أينشتين» حين تكلم فى «الكوليج دوفرانس» لم يجد إلا فرنسيين عليهم علامات الجد والانتباه. ولم يعدُ أحد منهم يفكر، منذ اللحظة التى بدأ الرجل فيها الكلام، إنه ينتمى إلى شعب هو «عدو» لفرنسا: لأن العلماء الذين اجتمعوا فى حجرة «الكوليج» لم يكونوا يرون من عدو سوى الجهل والخطأ. كان فى النظرية المبسوطة ما يدهش ويحير الأفهام إلى أقصى حد، ولكن الجمهور على الرغم من ذلك كان يصغى ويتردد ويتابع.

---

(١) «أينشتين» Einstein (ولد سنة ١٨٧٩). عالم رياضى طبيعى من أصل ألمانى (وتجنس أخيرًا بالجنسية الأمريكية). اشتهر بنظريته فى «نسبية» الزمان. - المعرب.

فى الخارج وفى مناظرات أخرى تبدو أيسر حلاً نشهد المصالح وتصارع العواطف. لكن كل هذا الضجيج قد انعدم على عتبة الحجرة الضيقة التى احتوت رجالاً كانوا فى طريقهم إلى الاتفاق على صورة عقلية للكون أكثر اتساقًا. وأظن أن كثيرين كانوا يفكرون معى بأن العلم، غداة المجزرة البشعة، قد ثأر لنفسه، وأعاد لى الناس أسباب الأمل.

الفَصلُ السابعُ
مبدأ الحُرّية

المبدأ الثالث الذى يتضمنه الخلق العلمى هو احترام الحرية. وهذا الاحترام تنكره أديان كبيرة ولا ترى له مبررًا: فالمسيحية الناشئة وإن كانت قدمت إلى العالم جملة من المبادئ هى من أجمل ما يمكن أن يعبر عن بغض العنف، إلا أنها منذ نشأتها تشدد النكير على من لا يؤمنون؛ ومنذ سيطرت الكنيسة فى قلب الامبراطورية الرومانية فرض قانون تيودوس (Code theodosien) على جميع الوثنيين الممارسين لشعائرهم عقوبة السيف البتار "gladio ultore sternatur"؛ وفى القرون الوسطى كان الملاحدة يعاقبون بالموت وكان غير المؤمنين موضع تشنيع؛ وانقض الصليبيون على المسلمين وعلى الألبيين "Les albigeois"[(١)]؛ وفى القرن السادس عشر قامت المعارك بين البروتستنتين والكاثوليكيين، وكانوا مختلفين على تأويل بعض النصوص؛ وفى القرن السابع عشر صدر فى فرنسا مرسوم ملكى يعاقب بالموت جميع المؤلفين الذين تنزع مؤلفاتهم إلى «إثارة الخواطر».

(١) فرق من خوارج المسيحيين فى جنوب فرنسا.

درج الناس على أن يتحدثوا عن أعمال العنف هذه وأن يصفوها بأنها مجانبة للأخلاق: وهذا هو الأثر عينه الذى تتركه فى نفس رجل العصر الحديث. ولكن العلم أكثر اطمئنانًا، وهو فى رغبته فى الفهم يرى فيها نتائج وخيمة ولكنها منطقية لأخلاق مخالفة لأخلاقه. وهذه الأخلاق تنشأ من الاعتقاد بأن الحقيقة وحدها لها حقوق، وأن الخطأ لا يمكن أن يكون له حقوق. وحتى فى أيامنا هذه يُذاع هذا المبدأ علانيةً فى منشورات بابوية مشهورة! ويندهش الرجل غير المعتقد، إذ يقرأ فيها أن حرية العقيدة والعبادات «زيغ وضلال» وأنها «استعباد النفس فى حمأة الإثم». ولكن لندخل فى روح النص: إن من يكتب، عنده اليقين التام المطلق أنه مالك للحقيقة! فكيف يعترف للفرد بحقه فى سلوك سبيل الخطأ التى هى سبيل الضلال؟ وكيف يقبل حرية الشر؟ فلو كانت الحقيقة التى يملكها حقيقة يقبلها الجميع طواعية لكان كل التجاء إلى القوة أو إلى السلطة شيئاً لا جدوى منه ولكان بالتالى أمرًا منكرًا. ولكن لما لم تكن من هذا القبيل، وكان من اللازم مع ذلك أن يقبلها الناس مادامت هى الحقيقة، فقد لزم تأييدها بمؤيدات خارجية. فالعنف فى مذهب كهذا لا يمكن أن يكون إلا شيئًا لا مندوحة عنه وبداية للتساهل مع الشر؛ وإثبات المطلق يسوق منطقيًا إلى إنكار الحرية.

ومن أجل هذا لم تكن الأديان وحدها هى التى تنكر الفكر أو تفتئت على حقوقه: رأينا من الناس من استعمل وسائل العنف فى الدعوة إلى آراء فلسفية عن تدبير المجتمعات، ورأينا مِن صنّاع المذاهب الذين لا يشكون فى أنهم على حق مَن لا يترددون فى

استعمال القوة لمقارعة خصومهم! وحتى حين تحول دماثه الخلق دون اصطناع السيف، كثيرًا ما نجد المخلصين من أنصار المذاهب المتعارضة يصطنعون ذلك العنف المقنّع الذى هو الحقد والذى هو السباب أيضًا: يسبون خصومهم انتقامًا لأنفسهم من عجزهم عن إقناع غيرهم. فكأن الحرية المنصوص عليها فى القوانين تهجرها الأخلاق الجارية هجرًا. ترى «چوليان الرافض» يلعن «إبيقور»، و «أوجست كمت» يلعن «چوليان الرافض»، وترى ملايين الناس ممن ليسوا «چوليان الرافض» ولا «كمت» يصبّون أمثال هذه اللعنات على من يسمونهم أعداء.

إن أكبر طرافة العلم أنه بقى دائمًا بعيدًا عن لعن الخصوم، بعيدًا عن تكفيرهم، وأنه جعل الحرية قانونه.

قد يتوهم بعض الناس خلاف ذلك: يقولون لا وجود لحرية العقيدة فى علم الهندسة ولا فى علم الكيمياء، لأن هذين العلمين يفرضان الحقائق عينها على جميع العقول. ولكن هذا لعب بالألفاظ: إن العالم لا يفرض على أحد من الناس براهينه، وإنما تفرض البراهينُ نفسها بنفسها إذا كانت متينة. ولا شىء هو أكثر حرية من الإذعان الذى يمنحه العقل هاتيك البراهين.

لا ينبغى أن ننظر إلى العلم بعين تلميذ من تلاميذ المدارس، فنعتقد أنه موجود كله فى تلك المختصرات التى ليست إلا دفاتر مدرسية مؤقتة، والتى من عيوبها أنها تلفت عقول الشبان إلى النتائج التى ظفِر العلم بها أكثر مما تلفتها إلى الظفَر نفسه. وإذا

أردنا أن نكتشف روح العلم العميقة وجب أن ننظر فى البحث من حيث هو بحث، أى فى اللهيب الذى هو روحه. وهذا اللهيب حر ولا يمكن أن يكون غير ذلك: يواجه العلماء الحقيقة التى تنفلت، فيترددون ويتحسسون ويراجع بعضهم بعضًا، ولا يمكن أن يخطر ببال أحد منهم أن يحد من حقوق فكر ما. من المشهور جدًا أن احتكاك الأذهان المتيقظة يؤدى يومًا ما إلى انبثاق النور الذى يخلق الوفاق واجتماع الكلمة. وليست الحرية التى يعترف العلم بها للجميع تساهلاً مكرهًا، وإنما هى أساس النشاط العلمى، وهى شرط النجاح. ومن أجل هذا قد تحتدم المجادلات العلمية بسبب التلهف على الحقيقة أو الخوف من الخطأ؛ ولكن استقلال الجميع فى الفكر استقلالاً مطلقًا لا يمكن أن يكون موضوع شك.

وقد يعترض البعض على هذا أيضًا قائلين إن الحقيقة متى تم ظهورها وجب على الجميع أن يذعنوا لها صاغرين، وأنه متى أقفل باب المناقشة لم يبق للحرية أثر.

إن الاعتراض مما يسترعى الأنظار. ولكن طرافة العلم هنا أيضًا هى أنه لا يعرف شيئًا يغلق دونه باب المناقشة: ففى حين أن أديان المطلق وفلسفات المطلق تطلب قبل كل شىء مواقع حصينة يستطيع الفكر أن يقف عندها مرة واحدة وإلى الأبد، ترى العلم لا يطلب إلا مواضع ارتكاز لوثبات جديدة على الدوام. وأجمل افتراضاته التى يرتب عليها معارفه مطبوعة بطابع «النسبى» وبالتالى بطابع «المؤقت»؛ وللك لم يكن فى العلم شىء هو «حاسم»، وليس فيه شىء

إلا ويمكن وضعه موضع البحث. وما أبعد الساعة التى يستطيع فيها الهندسى أو الفيزيقى أن يقولا: «هذه الحقيقة قد كسبت وستغلق دونها أبواب الفكر»! بل قد اعتدنا بالعكس أن نرى أشد الاكتشافات بريقًا قد انبثقت من الاحتجاج على ما كان يبدو مستقرًا مكين الاستقرار. ولقد شهدنا فى عصرنا هذا أمثلة مشهورة حين تجاسرت نظرية «أينشتين» على مهاجمة فكرة المكان وفكرة الزمان. ومن ذا الذى لا يذكر الضجة التى أثارها فى ذلك الحين بعض الفلاسفة بل وبعض العلماء أيضًا؟ كان يبدو أن مجددًا جريئًا قد جن جنونه فهاجم ما لا سبيل إلى مهاجمته. ومع ذلك فما أسرع ما أصبحت المجازفة الحمقاء باعتراف الجميع فتحًا عظيمًا! ولم يخطر ببال أحد حتى ممن صدمتهم النظرية أيما صدمة أن يرفع فى وجهها علم المعارضة باسم سلطة مقررة: إن من أشهر الأمور أن التجديدات العظيمة إنما مصدرها نوع من التمرد على ما يبدو حاسمًا قاطعًا.

هذا التمرد أبو الفتوحات، قد شعرنا به جميعًا يملأ محاضرات «لانجڤان» عن العلم والحتمية. وقد تبينا فى الاحتجاج الذى وجهه على النظريات التى من شأنها أن تنتقص من العلم، وفى الحل الجرىء الذى قدمه بإزاء صعوبة مخوفة؛ لكى يصون للعلم وظيفته وهى أن يجعل الكون معقولاً، قد تبينا ذلك الجهد الذى يتقدم دون أن يخشى أن يقطع صلته بأفكار يزعم البعض أنها مستقرة، ويجترئ على مناقشة ما كانوا يظنونه فوق مواطن النزاع. وإذن فلا يقولنّ أحد لنا إنه قد يجىء يوم يكون فيه العلم مطمئنًا إلى نتيجة

من نتائجه فيقول: «لا مناقشة فى هذه المسألة» ويعدل عن الحرية. إن كل شىء يمكن أن يوضع موضع المناقشة، لأنه لا علم إلا مما هو نسبى، ومن أجل هذا ستكون الحرية دائمًا، فى مواجهة جميع المشكلات، هى نفس قانون العلم.

على أن الوقائع فى هذه المرة أيضًا تتكلم وتشهد بأن بين العلم والحرية وحدة لا تنفصم عراها: فبينا العقائد والمذاهب قد اعتمدت على العنف ظل العلم نقى اليدين من الدم المراق. وهذا يبدو لنا فى غاية البساطة حتى نكاد نغفل عن أن نلاحظة. ولكن ينبغى أن نعرف كيف نندهش مما يُدهش: فى حين أن كثيرًا من الجهود الكريمة لإقامة الوئام بين الناس قد أفضت إلى كثير من الاضطهادات وكثير من الحروب وكثير من الأحقاد، استطاع الجهد العلمى فى كثير من المسائل أن يكفل الوفاق بين الأذهان دون أن يعمد قط إلى القوة. إنما تغلبت النظريات العلمية الكبيرة بما أوتيت من فضائل خاصة، فلم تحتج إلى تأييد الحكام ولا إلى تأييد الأغلبيات لتعينها على السيطرة أو الذيوع، واختصت بميزة فريدة: وهى أنها أدخلت النظام دون أن تمس الحرية.

فأخلاق علم تتضمن احترام الفكر المستقل. ولا حاجة بنا إلى أن نبين التجديد الذى يحدثه فى مجالات أخرى انتصار هذا المبدأ الذى أعلن كثيرًا وتجوهل كثيرًا. لاحظنا فيما سبق أن من آمن بحقيقة مطلقة وسلطة معصومة لا يرى التسامح إلا شيئًا لا محيص عنه. أما من أراد أن يستلهم أخلاق العلم فيرى التسامح صورة

متواضعة ناقصة من صور احترام الفكر. إن صبرنا على عما يبديه غيرنا من آراء مخالفة لآرائنا شىء جميل؛ ولكنه قليل. ينبغى ألا نصبر على ذلك كما نصبر على شر لا بد منه، بل ينبغى أن نبتهج له ابتهاجنا لخير من الخيرات، لأن حرية التعبير عن الآراء، مهما يلحقها من شوائب التطرف، تعين الحقيقة على الظهور. وأخلاق العلم تريد أن تصون هذه الحرية من عبث «الدجماطيقية» ومن عدوان الاستبداد ومن سطوة المال، ذلك المال الذى نجده دائمًا على استعداد لأن يشترى وسائل التعبير عن الفكر أو يشترى الفكر نفسه.

ولنذهب أبعد من هذا فنقول إن المبدأ الذى يستلهمه العلم بالفعل لا يقتضى أن نسمح لغيرنا من الناس أن يقولوا ما يجول بخواطرهم فحسب، بل يتطلب أن ننصت إليهم، لا أقول بدون تحيز، بل بذلك القدر من التعاطف الذى يصاحب كل جهد لتمام الفهم: فإن العالم إذا أراد أن ينقض نظرية تبدو له مخالفة للوقائع المشاهدة إنما يبدأ بدرس تلك النظرية بما يستطيع من تعمق واستقصاء، فيأخذ منها الصحيح النافع، ويحلو له وهو يتجاوزها أن يقدم لها أطيب التحية؛ فهو يحيى فى خطأ اليوم حقيقة الأمس، وهو يبذل الجهد ليبين، فى الدعوى التى تبدو له أمعن الدعاوى فى البطلان، الهمَّ المشروع الذى كان سبب وجودها. وليس هذا منه تأنقًا ذهنيًا، ولكنه شدة عناية بأن لا تفلت منه أدنى ذرة من حقيقة ممكنة.

وهذا الجهد المبذول للفهم مع المشاركة الروحية والتعاطف أليس يمكن أن يمتد إلى جميع الأفكار؟ يجوز لنا على الأقل أن نلاحظ أنه قد بدأ يثبت كيانه فى مجال من المجالات التى سادتها روح الجدال زمانًا طويلاً. بل إننا بالأمس، رأينا كثيرين من العقليين يردون على ما وجه إليهم من هجمات، فيقفون من بعض الأديان موقفًا لم يكن بعدُ موقف العالم. نعم إن عظماء أصحاب الجدل من أهل القرن الثامن عشر كانوا على دراية بتاريخ المسيحية أكثر مما يظن غالب الناس. ولكنهم كانوا يهاجمون إذ يردون عن أنفسهم هجمات الخصوم: فرأى بعضهم أن الأديان إنما هى استغلال منظم لملكة التصديق عند الإنسان. فلما تقدم روح النقد وتقدم علم الاجتماع أخذت تتغير هذه الحال شيئًا فشيئًا. إن العالم الذى يفرغ لدراسة الأديان بروح العالم يرى فيها مبتدعات اجتماعية خطيرة لا يستهان بها، ويجعلها موضوعًا لدراسة منزهة عن الهوى، ولو لم يكن يقبل ما فيها من عناصر فائقة للطبيعة أو عقائد لم يقم عليها دليل عقلى. وإذا رأى نفسه بإزاء معتقدات أو شعائر تصدم نزعته العقلية فلا يمكنه أن يقبلها، قال فى نفسه إن هذه وقائع اجتماعية، وهى وقائع كان لها علل، ثم يحاول قبل كل شىء أن يتمكن من فهم هذه الوقائع وأن يبرز عللها. وإذا وجد نظامًا يبدو له مشئومًا فى الوقت الحاضر أخذ يتساءل عن الحاجات التى استطاع أن يقضيها فى الماضى. وبالإجمال لما كان العالم معنيًا بأن يفهم فهو حذر من كل هوى قد يلقى على الحكم غشاوة. إن قليلى التصديق هم فى أغلب الأحيان الذين استطاعوا أن يوضحوا المهمة التى قامت بها الأديان

فى تاريخ الإنسانية، لأن الروح العلمى يذهب إلى أبعد من التسامح: فهو لا يقنع بتطليق الكراهية أو الازدراء باعتبارهما سبة للفكر، بل ينكرهما أولاً بوصفهما عقبة من العقبات فى سبيل الذهن.

الفَصلُ الثَامِنُ

مذهب الحتمية والتسامح

لم أعرض إلى الآن فيما أسلفت من حديث إلا للمبادئ المتضمنة فى تطور العلوم التى بلغت اليوم سن الرشد، أى للعلوم الطبيعية والبيولوجية. فإذا قبلنا أن ننظم علم الإجتماع فى مصاف تلك العلوم ظهر لنا مبدأ رابع وهو التسامح.

ذلك أن كل بحث اجتماعى يبدأ بالطبع بمذهب الحتمية (determinisme) أعنى بالفكرة الذاهبة إلى أن الوقائع الاجتماعية كغيرها من وقائع خاضعة لقوانين. يستطيع الفيلسوف أن يضع فى كل فرد من الناس إرادة حرة مستقلة (autonome) كما أن المنجم يضع فى كل كوكب أو فى كل نجم إرادة عليا لإله من الآلهة. ولكن كما أن علم الفلك الحديث يفسر حركات القمر بقوانين متعقلة، لا بمشيئة «أرتميس»[١] كذلك يأبى علم الاجتماع أن يفسر الوقائع الإنسانية إلا بمعنى قوانين متضمنة فى الأشياء.

---

(١) «أرتميس» Artemis اسم يونانى لديانا إلهة الصيد.

وليس من قصدى هنا أن أفتح من جديد باب المناقشة فى المعنى الميتافيزيقى للحرية، فإنها مناقشة لا طائل منها بالضرورة: ولكنى أمضى إلى أبعد من هذا فأقول إننى أسلم بأن الجواب الوحيد الذى يمكن أن يوجه إلى أنصار الحرية هو تزايد القوانين الاجتماعية التى محصت تمحيصًا حسنًا. والواقع أن ما شاع عندنا إطلاق اسم الحرية عليه إنما هو جهلنا بالعلاقات بين العلل ومعلولاتها. ولما كان علم الاجتماع علمًا ناشئًا، ولم يمحص من هذا القبيل إلا عددًا قليلاً جدًا من العلاقات فقد كان طبيعيًا أن يبخل عليه المحتاطون والمتشككون بالثقة التى منحوها علم المادة. فواجبنا نحن أن ندفع هذه الشبهات بالبحوث والنتائج.

ولكن الذى أريد أن أبينه ها هنا أن كل تقدم فى مذهب الحتمية يؤدى بنا ضرورة إلى وقوف الإنسان موقف التسامح بإزاء الناس جميعًا.

كان أسلافنا يرون أن الرجل الذى يقترف الإثم حرٌّ فى أن لا يقترفه، وأننا نؤدى واجبنا نحوه حين ننبهه ونحضه ونوقفه على جلية أمره: فإذا أعرض عن النصح كان مخطئًا، وكان من حقنا أن نعامله معاملة الآثمين؛ وإذا قضت العدالة أن يكفر عن سوءاته فلينزل به العقاب، أو فليكن موضع الاحتقار على أقل تقدير.

ومن هنا جاءت الأخلاق الإنسانية التى ترفع قدر الصالحين وتندد بالطالحين؛ ومن هنا كانت الأخلاق «السماوية» التى تهب السماء للمصطفين وتجعل جهنم مأوى للمغضوب عليهم والضالين.

ولكنا متى سلمنا بأن الجريمة نفسها واقعة محتومة فقد وضح أننا إذا مقتنا الجريمة لم نعدْ نستطيع أن نمقت المجرم، بل كان خليقًا بنا أن نرثى له وأن نعده أول ضحايا الشر الذى قدمت يداه.

ولنضرب مثلاً بصبى فى الخامسة عشرة من عمره قد سرق فزجره القاضى وأرسله إلى إصلاحية الأحداث: فهذا أمر منطقى جدًا مادام القاضى بصدد كائن حر. وإذا اقترف الصبى سرقة أخرى بعد ذلك بعام فمنطقى أيضًا أن يزجره القاضى مرة أخرى وأن يوقع عليه عقابًا أشد.

ولكن العالم الآخذ بمذهب الحتمية يلاحظ أن ذلك الصبى «المجرم» ابن لأب سارق ولأم سارقة، وأنه قد فسد قبل أن تكون لديه فكرة عن الخير والشر. والعالم يلاحظ أن الأماكن التى يسمونها «إصلاحيات» ليست منظمة تنظيمًا حسنًا، وأنها تزيد فى فساد من يراد تقويم اعوجاجهم. ويلاحظ العالم أن نظام العقاب يخلق مجرمين عائدين (recidivistes)! فماذا يصنع؟ بدلاً من أن يزدرى الطفل، وبدلاً من أن يوقع عليه العقاب، يطلب أن يُعنى المجتمع عناية أكبر بأطفال المجرمين، ويطلب أن تصلح إصلاحيات الأحداث، وأن يوضع حد للإسراف فى العقاب. وبالإجمال يطلب العالم أن لا ننظر إلى الطفل نظرنا إلى «مجرم» يستحق المقت أو الاحتقار، بل نظرنا إلى مريض يستحق الرحمة والعلاج.

يعترض الكثيرون بأن هذه النظرة المتسامحة قد يكون من شأنها أن تقلل سخطنا على الجريمة، وأن تشجع أهل الشر على الغواية.

ولكن الاعتراض ضعيف كل الضعف. هل قلّ فزعنا من وباء الطاعون منذ أن عدلنا عن رأينا فى أن المصاب به آثم حل به عقاب الآلهة؟ وهل أمسينا أقل فزعًا أو أقل نجاحًا فى كفاحنا للأوبئة منذ أن أصبحنا لا نكافحها بالصلوات لأپولون أو لإسقولاب[١] بل بالمستشفيات و بعلم حفظ الصحة؟

فإذا انتصرت الحتمية الاجتماعية، وهو ما يحق لنا أن نرجوه، فإن المجتمعات ستظل تنكر الجريمة والكذب والسرقة، وستمضى فى مكافحة تلك الرزايا. ولكنها لن توقع «العقاب» على الجانى، بل ستداويه بعد أن تكون قد حالت بينه وبين الإضرار بالناس. ولن تشدد النكير على الجريمة، بل ستهتم بتبين عللها ووجوه القضاء عليها. فما الدواء الناجع؟ أهو ذم المدمن على الخمور، أم إلغاء تعاطى الخمور، أم إلغاء تعاطى الخمور بواسطة القانون؟ أهو التشنيع على التاجر الدنىء؟ أم اجتثاث جرثومة التجارة الدنيئة؟ أهو سب البغايا؟ أم القضاء على البؤس الذى يغذى البغاء؟

يعترضون أيضًا بأن التسليم بفرض «الحتمية» قضاء على الأخلاق نفسها، ومساس بالكرامة الإنسانية. وكأن احتمال أن يصبح الشخص مدمنًا للخمور أو سارقًا أو بغيًا هو جزء من كرامتنا! ولكن مع أن من الميسور دائمًا أن تُرمى الأفكار الجديدة بمخالفة الأخلاق، فإن أخلاق التساهل القائمة على «الحتمية» لها أسلاف نابهون يجب إسكاتهم قبل التعرض لنا: فهل كان أفلاطون

---

(١) «إسقولاب» Esculape إله الطب عند اليونان.

مقوضًا للأخلاق حين قال: «لا أحد يقترف الإثم عامدًا متعمدًا»؟ وهل كان «سِنِكا» هادمًا للأخلاق حين قرر أنه ينبغى علينا أن لا نمقت الشرير بل أن نرثى لحاله؟ وهل كان الإنجيل مقوضًا للأخلاق حين أورد على لسان عيسى: «أبى أغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ما يصنعون»! وأخيرًا هل نَقضى نحن على الأخلاق إذا اعتقدنا أن قانون المحبة شامل، وأنه ليس لأحد الحق فى أن يستثنى منه أحدًا؟

ولا يقف المبدأ الحتمى عند الرفق بالمجرمين والتوفيق بين المقت الشديد للإثم والعطف الفعّال على مقترف الإثم. فإلى جانب أولئك الذين يسرقون ويقتلون والذين يظلون لحسن الحظ من الشواذ فلا يقاس عليهم، هناك كل من يخدمون قضية الجور تحت ظل القانون: أولئك هم الأنصار المتأخرون لروح الحرب أو لروح الطبقات وخصوم الحرية والممتهنون لحقوق الفكر.

وإذا كان من الواجب أن نناضلهم فإن أخلاق العلم تصرح بذلك وتدعونا إليه. ولكن النضال هنا أيضًا يشوبه غير قليل من الحقد والضغينة: فكثيرًا ما يرخى الناس العنان لأهوائهم، وبدلاً من أن يقصروا بغضهم على المذهب السيئ تراهم يمقتون من يخدمونه فيجعلونهم موضعًا للازدراء والكراهية ويعاملونهم معاملة الأعداء. وأغلب الظن أن هذه المعاملة ليست أضمن الوسائل للعمل على انتصار الخير. ومن المحقق أنها ليست أجمل الوسائل لذلك. أما الروح الاجتماعية فينبغى أن تذكرنا أنه إذا كان لم يزل هناك أناس يؤمنون بقداسة الحرب أو الامتيازات، فإن وجود هؤلاء الناس هو

نفسه واقعة ولها عللها. فإذا أخطأوا فذلك لأن عبء الماضى قد أناخ بكلكله عليهم. وسواء أكانوا أثرياء أم أقوياء أم قليلى الأدب، فإن الذين يرون بؤسهم لا يستطيعون أن يشعروا نحوهم إلا شعوراً واحداً وهو الشفقة، فلا يدور بخاطرهم أن يصرعوهم بل يريدون أن يصلحوهم.

من منا هو المعصوم حتى يصح له أن يترفع على المخطئين؟ إذا كان من حسن حظنا، بفضل ما نلنا من تربية، أو ما حصلنا من دراسة، أن نكون فى عداد من يرون بوضوح بعض المظالم الكبرى التى تشين مجتمعاتنا، فمن أوضح الأمور أننا مع الأسف لا نرى جميع المظالم: فكما أن حكماء كثيرين قد عاشوا دون أن يروا فظائع التعصب فنحن نعيش من غير شك بين مظالم كبيرة لا نراها بل قد لا نلمحها، وقد تكون عمالها أو شركاء فى افتراقها عن غير قصد ولا شعور. وقد يأتى يوم يقف فيه المؤرخونَ من أهل عالم أكثر حكمة من عالمنا موقف الدهشة لتلك الغشاوة على بصائرنا، ثم إنهم يكونون قد نشأوا نشأة علمية، فيفهمون أن خطأنا إنما ورثناه من ماضٍ فُرض علينا كما يفرض علينا الأمر الواقع، فيحكمون حكماً شديداً على أخطائنا ويتسامحون فى الحكم على أشخاصنا.

وهذا العطف الذى سنكون بحاجة إليه يوماً ما إنما تطالبنا روح علم الاجتماع بأن نمنحه جميع الناس. فهل يكون النصر لهذه الروح مع علم الاجتماع نفسه؟ إن على الوقائع أن نجيب. إننى أعيد القول بأننى أعرف أن الناس لا يولون العلم الناشئ، علم الوقائع

الاجتماعية، الثقةَ التى يمنحونها على الطبيعة أو علم البيولوجيا.
ومن أجل ذلك رأيت أن لا أعرض فى الفصول التالية لمبدأ التسامح المتضمن فى البحث الاجتماعى وقد كان من حقى على أقل تقدير أن أبيّن أنه إذا قدّر له أن ينتصر كما أؤمل فسيعيننا على أن نوفق بالعقل بين شعورين عظيمين يقودان العالم: وهما كراهية الشر ومحبة الناس.

الفَصلُ التّاسعُ
شرط النجاح

تمجيد الفكر، والتماس الوحدة، واحترام الحرية، هى المبادئ الثلاثة الكبرى المتضمنة فى البحث العلمى، وهى المثل الأعلى الذى صدر عنه العلم، وأصبح له ناموسًا يخضع له ويحيا عنيه.

نعيد القول إنه مثل أعلى لم نبتدعه نحن وإنما هو المبتدع، وإننا لا نقدمه كقوة جديدة صالحة فقط للعمل المستقبل، ولكنه مستفاد من عمل قد تمَّ من قبل؛ ثم هو مثل أعلى لم يترجم فى الأقوال إلا بعد أن تُرجم فى الأفعال.

وقد يقول لنا البعض: وماذا بعد هذا؟ إن كون العلم يتضمن بالفعل هذه المبادئ الثلاثة ليس يلزم عنه أن له الحق فى أن يسعى إلى فرضها على الناس دون أن يخرج عن حدود وظيفته.

ونحن موافقون، وليس من قصدنا أن نعودَ بعد الدوران إلى ما قلنا فى بداية الأمر. فمن الحق أن العلم ليس تشريعيًا ولا يمكن أن يكون تشريعيًا، وأنه يخرج عن مهمته إذا أراد أن يقوم بدعوة الناس

إلى المبادئ التى خرج من صلبها، غير أن من الحق أيضًا أن تلك المبادئ قد التحمت بالعلم التحامًا يجعل فى ذيوعه إذاعة لها. ولما كنا نراه يزيد كل يوم ذيوعًا فمن حقنا أن نلاحظ أن أخلاقًا «جديدة» قد أخذت تنطبع فى الوقائع وفى النفوس. وهذا كل ما قد أردت أن أبينه.

صحيح أن أخلاق العلم هذه مازالت فى بداية أمرها، وأنها تصطدم بقوى عتيقة تنكرها تارة وتحرقها تارة أخرى.

وهذا منشأ ما تراه من أمر عجيب: ففى حين أن العلم شىء عظيم جليل بلا نزاع، نجد أن تدقيقات العلم مازالت قلقة كل القلق، وهى أحيانًا بائسة غاية البؤس، آثمة أشنع الإثم.

ولكن لنتخيل ما سيأتى به المستقبل يوم نرى تلك الأخلاق قد حملها تقدم الروح العلمى، فانبسط سلطانها، ولنتخيل أن العلم قد استخدم بالروح التى وهبته الحياة، فإننا لن نرى مكتشفات الفكر تصبح على أيدى الناس أدوات للهلاك وآلات للطغيان والبؤس المادى والأخلاقى.

بما أن أخلاق العلم تمجيد للفكر، فإن أصحاب التطبيقات العلمية (techniciens) لن يستخدموا الوقائع المقررة ولا القوانين الممحصة إلا للعمل على ذلك التمجيد. وسيتوخون مهمة تحرير الإنسانية من العبوديات الاقتصادية، لا لزيادة اللذائذ المادية زيادة لا حد لها، بل لكى يتيسر لكل واحد وللمجموع أن يدخر للمتع العقلية أكبر قسط من الحياة. ولن يضعوا الذهن لحظة واحدة فى خدمة

الآلة إلا لكى يضعوا الآلة في خدمة الذهن، وسيخلصون الإنسانية من هذا الخضوع للعامل الاقتصادى الذى ينوء بعبئه أغلب الناس. فإذا تم لهم أن يخلصوهم من الرق فلن يبحثوا إلا عن الوسائل العلمية (Techniques) لجعل المعارف المكتسبة فى متناول الجميع، ولكى يتيسر لكل واحد أن يكون أكثر فأكثر وأحسن فأحسن كائنًا مفكرًا.

وبما أن أخلاق العلم طلب للاتحاد فإن أصحاب التطبيقات العلمية لن يقبلوا أن توجه نتائج البحث البرىء ناحية الحقد والموت. وسيأبون أن يكونوا عمالاً فى خدمة الحرب، ولن يطيب لهم أن يروا أن ما اكتشفوا لتحقيق الوئام قد استخدم للقتل، بل سيبذلون لإذاعة الحقائق المكتشفة ما وسعهم من جهود، حتى ينشأ من الوفاق بين الأذهان فى عالَم عاقل، وئامٌ بين الإرادات والقلوب.

وأخيرًا لما كانت أخلاق العلم احترامًا للحرية، فإن أصحاب التطبيقات العلمية لن يضعوا أنفسهم أبدًا فى خدمة الاستبداد فى أية صورة ظهر، سواء أكان استبداد القوة أم المال أم استبداد المذهب الذى يريد الافتئات على حقوق العقل. وسيكون قانونهم فى جميع التطبيقات التى تستطيع اختراعاتهم أن تخدمها، أن يحترموا استقلال الفكر وأن يناصروه، موقنين أن القوة لا يحل لها بوجه من الوجوه أن تصاول الفكر.

أقول: لنتخيل هذا. والواقع أننا اليوم مضطرون إلى أن نتخيله، مادمنا نعيش فى عالم نرى فيه الشراهة والكراهية والعدوان

تستخدم العلم مع التنكر له، وتطلب إليه كل يوم أدوات للحقد والقهر؛ ولكن خاصة كل مثل أعلى أن يتقدم للمستقبل. وإنما أردت أن أبين أن النتيجة الضرورية لأخلاق العلم هى رفع النشاط الإنسانى إلى منزلة عالية. وستتحقق النتيجة إذا انتصرت تلك الأخلاق. وهذه الأخلاق نفسها ستنتصر إذا دأب العلم والروح العلمى على توسيع مجالها وتوطيد دعائمها.

فهل لنا أن نأمل فى هذا التوسع؟ إن ما شرفت به القرون الثلاثة الأخيرة من تقدم لم يسبق له مثيل يأذن لنا بآمال كِبار؛ ولكنى سأتجنب كل نبوءة متفائلة: فالإغراق فى التفاؤل قد يغرى الإنسان بالكسل. ولئن يكن صحيحًا أن تقدم المعرفة العلمية لا يُدفع ولا يُغلب على مرور الأيام، فمما يؤسف له أنه غير مطرد ولا مستمر. وهذا أمر محقق لا نزاع فيه: فقد رأينا التقدم العلمى يقف عن الحركة أواخر الامبراطورية الرومانية وفى العصور الوسطى. ونلاحظ أننا حتى فى أيامنا هذه نرى الغلبة لنوع من المادية قد لا تكون أقل شؤمًا على انتصارات الفكر. فلنكن إذن على شىء من الحيطة، فلا نثق كل الثقة فيما يذهب إليه بعض الناس من أن العلم ستكون له الغلبة حتمًا وفى كل زمان بفضيلته الخاصة: فهو لا يستطيع أن يعيش ككل المبتدعات الإنسانية إلا بجهود من سيخدمونه. فعلينا إذن أن نسعى لنجنب الإنسانية عهودَ الوقوف أو التقهقر، ولنجعل الانتصار للروح العلمية ولأخلاق العلم والمثل الأعلى الذى تحمله فى نفسها.

ولكننا نلتقى هنا بالاعتراض الأخير: هل هذا المثل الأعلى على نحو ما عرفناه يبلغ من العلو والنبل والكمال درجة يستولى بها على الإنسان كله ويرفعه ويرضى حاجات الشعر فى نفسه حتى يُثير فى قلبه الحماسة؟ وهل يقدم إلى الوجدانات الفردية ذلك الشعور العميق بالجمال الذى يمنح وحده التوثب والفرح؟

إنى أعرف أن كثيرين ينكرونه، وأعرف أنه حتى بين الذين يقبلون أخلاق العلم سيكون هناك أكثر من واحد يرون أن هذه الحكمة لم تبلغ بعد إلا نصف حكمة، وأن حياة النفس فى عمقها تتطلب غذاء آخر. ولكنى أحسب أن الأمر لا يعدو أن يكون وهمًا راجعًا إلى سلطان الآراء القديمة: فإننا إذا توخينا أن ننفذ إلى روح العلم ألفيناه يقدم إلينا أنضر البهجات، ويقدم نظرةً إلى الحياة أقدر من غيرها على إثارة حماستنا ونشاطنا.

الفَصلُ العَاشِرُ

بهجة المعرفة ـ بهجة الاتحاد ـ بهجة الانطلاق

صحيح أن المثل الأعلى الذى عرّفناه شديد على النفوس من بعض الوجوه: فإن الحقيقة لا تنكشف للعالم إلا ببذل جهد شاق، والعلم لا ينكشف لغير العلماء إلا بعد البحث الطويل. ولكن أى المباهج يمكن أن توازن بتلك التى يأتينا بها هذا الجهد وذلك البحث؟ قد وصف لنا «لوكريتيوس»[1] نشوة الجهد فى شعر له مشهور، ووصفها عالم من علماء عصرنا وصفًا فيه حرارة وتأثر. وصف «تِرْمييه» Termier بهجة أولئك الباحثين ذوى النفوس المشرقة المبتهجة وإن لم يفهمهم الناس، «بهجة جاليلى[2] حين رأى

(١) «لوكريتيوس» Lucrece شاعر لاتينى كبير، ولد سنة ٩٥ ق.م؛ استوحى قصيدته «فى الطبيعة» من المذهب الجبرى الذى دعا إليه الفيلسوف اليونانى «إبيقور»؛ ولكن تحمس الشاعر لجلال القوى الطبيعية، وكراهيته للخرافات، ومحبته للإنسانية وسعيه إلى أن يدفع عنها الخوف، ليعيد إليها الراحة والطمأنينة، كل هذا قد جعل من قصيدة الشاعر درة من درر الأدب اللاتينى ـ المعرب.

(٢) «جاليلى» Galilee (١٥٦٤ - ١٦٤٢) فلكى رياضى طبيعى وفيلسوف إيطالى؛ مكتشف عدة قوانين علمية كقانون الرقاص وقانون سقوط الأجسام... وهو صاحب فلسفة للمادة ذات طابع ميكانيكى، وأحد السابقين إلى إقامة المنهج الحديث للعلوم الفيزيقية والكيميائية ـ المعرب.

تحت قدميه حركة الأرض، وبهجة كِپْلَر[1] وهو يرهف السمع، فى سكون الليالى الجميلة، إلى الصوت البعيد، صوت دوران الأفلاك. ذلك الدوران الذى صاغ قوانينه الدقيقة، وبهجة نيوتن حين رأى ثبوت شمول الجاذبية فى كل ما حوله من العالم، ورأى علم الفلك كله يصبح مشكلة بسيطة من مشكلات الميكانيكا».

ما منشأ هذه البهجة؟

تنشأ من شعور المرء بأنه حين يستكشف الحق يؤدى رسالة هى أرفع ما استعد لأدائه إنسان. يقول حيث لم يكن يوجد إلا حيرة وظلام: «فليكن النور!» ويطلع النور على الناس. فهذه الرغبة فى الفتح المطوية فينا، والتى دفعت كثيرًا من الأفراد والشعوب إلى كثير من أعمال العنف والجور، تجد فى العلم وسيلة تشبعها وترفعها: ذلك أن الفكر حين يقيم النظام فى العالم يسيطر عليه، ويتناول الواقع الذى كان يبدو باتساع مداه واختلاف ألوانه شيئًا يستعصى على التحليل، فيطبعه بطابعه ويبسط عليه سلطانه، وتأتى الوقائع راضخة فتنضوى تحت لواء الافتراض الذى كان يبدو هزيلاً، فأصبح له الحكم والسلطان.

تلك بهجة بلغ من صفائها وامتلائها أن جعلها بعض المفكرين ميزة انفردت بها الآلهة. وقد كانت خاصة العظمة عند الموجود

---

(١) «كپلر» Kepler (١٥٧١ - ١٦٣٠) فلكى ألمانى كبير؛ صديق «تيكو ـ براهى»؛ جهد لإصلاح مذهب «كپرنك» فى علم الفلك، وسعى إلى التمكين له بين العلماء؛ وكثيرًا ما مزج «كپلر» نظراته العلمية بلمع صوفية ـ المعرب.

الإلهى فى ذهن اللاهوتيين والفلاسفة هى أنه مستمتع بسعادة المعرفة فى كمالها لا يعوزه منها شىء. ولكن الذى يضفى على بهجة العالم سحرًا أكبر مما للبهجة التى تنسبها الميتافيزيقا إلى الآلهة أنفسهم، هو أن سعادة المعرفة يصحبها سعادة البحث، أعنى ذلك الشعور بالإبداع الذى يصحب سيطرة الفكر على المادة.

يقف البحث بإزاء الواقعة التى تتهرب، والعلاقة التى تتحجب، فينبثق الافتراض فى ذهنه. ويكون أول الأمر افتراضًا مزعزعًا ثم يتضخم ويقتحم الواقع: وتؤيده تجربة وتعارضه أخرى، ويسنده نص ويصدمه آخر. ويحدث أحيانًا أن ما كان من الصيغ رائقًا يبدو بعد ذلك قفرًا خداعًا: فنرجع على أعقابنا، ونقدم على سلوك طريق جديد. وقد يحدث أيضًا أن يتذرّع الذهن بالعناد ويجسر على معارضة الظاهر، ويعيد التجربة التى خيبت الآمال؛ وإذا الوقائع وقد استضاءت فجرت على أحسن ترتيب.

فما عسى أن يكون الزهو الهزيل، الذى يخالج القائد الحربى الذى تصفق له الجماهير الساذجة بالقياس إلى هذا الانتصار الذى يكون للفكر على الكون؟ وما قيمة بهجة الفاتح حين يستولى على مدينة أو على قطر، إلى جانب البهجة التى تكون لعلماء الفلك الذين استطاعوا بقوة الذهن وحدها، أن يغلبوا اللامتناهى فى العظم، وإلى جانب بهجة علماء الطبيعة أولئك الذين ساروا بالتجربة وبالحساب فى الطريق إلى التغلب على المتناهى فى الصغر؟

كلا، ينبّغى ألاّ نرثى لحال الباحثين الذين يترددون ويتحسسون ويواصلون البحث؛ فهم كما يقول «ترمييه» أيضًا: «حسبهم حتى إذا لم يجدوا ما كانوا يطلبون أنهم قد طمعوا فى النشوة العظمى؛ وأنهم قد عاشوا فى الحماسة والأمل وفى الحلم، وإنه لحلم برىء براءة ليس لها حد: فهم عاشقون مخلدون»؛ ومهما يكن فى جهدهم من مشقة، فإنه يحمل فى نفسه جزاءه الحسن؛ وما من شىء يستولى على النفس كلها كالطلب الشديد للحق.

قد يقال إن هذه البهجات ميزة انفرد بها العلماء أنفسهم. وهذا حق: فكما أن القس يتصل بالأمور المقدسة على وجه أكمل، كذلك يستمتع الباحث أقصى استمتاع بسعادة الفتح: إنه اختار النصيب الأوفى. وقد يكون من الخير أن نقول هذا فى أيامنا هذه، إذ نرى كثيرين جدًا من الشبان تغريهم نفعية عامية، فيتأثرون بها فى اختيار طريق حياتهم. ولكن البحث يدخر لجميع من يقبلون عليه مُتعًا من هذا القبيل. وليس انفعال من يستمع إلى سيمفونية موسيقية كانفعال الموسيقار الذى ألفها، ولكن يمكن أن يقاربه: وكذلك كل من يرغب فى المعرفة، وكل من يدخل حظيرة العلم ينال نصيبًا من مباهج العالم. فهو كالعالم فخور بالفهم، وهو كالعالم يشعر بهزة فى النفس، إذ يرى الصورة المعقولة للعالم تخلص شيئًا فشيئًا من الظلام.

إن ما يصح أن نوجهه اليوم إلى تعليم العلوم من مآخذ، هو أنه كثيرًا ما يعرض فى أسلوب جاف جدًا النتائج التى تم غزوها. ولا

يدلى بالبيان الكافى عن الفتح نفسه، وعن تردده وتعثره، وعن كل ما ينطوى عليه سيرُه من أنباء درامية مثيرة. وقد يكون من الأناقة أن تُغفل ذكر الكفاح، وأن نقتصر على إظهار الانتصار. ولكنا لو أَطلعنا غير العارفين على هموم البحث ومباهجه لزاد تقديرهم للجمال الحىّ جمال العلم. وقد يجىء يوم تكون فيه الإنسانية المتنبهة شديدة التحمس للمعارك الكبرى التى يشنها الفكر على المجهول، كما أنها اليوم ما فتئت تتحمس للمعارك الخسيسة التى يشنها الإنسان على الإنسان.

وليست بهجتنا بشعورنا بأننا نشارك من يفكرون بأقل من بهجتنا بالمعرفة. مهما تكن قوة الأنانية الإنسانية فإن الرغبة فى الاتحاد قد بلغت من الرسوخ فى نفوسنا أن سيطرت على تاريخنا كله. وسواء لاحظنا الناس فى القبيلة أو فى الأسرة أو فى المدينة أو فى الوطن أو فى الكنيسة أو فى الرابطة المهنية، نجدهم دائمًا يطلبون أوضح معانى السعادة إلى الشعور الذى يقربهم إلى الغير، ويكون المرء سعيدًا حين لا يجد نفسه وحيدًا؛ ويكون الإنسان سعيدًا، إذ يحس نفسه متعاونًا تعاونًا تامًا عميقًا مع أمثاله من الناس؛ ويكون سعيدًا حين يشاركهم فى أداء مهمة أو فى انفعال فنى أو فى الإيمان بمثل أعلى؛ ويجد المرء فى تفانيه فى المبتدعات الاجتماعية الكبيرة، ويجد حتى فى التضحيات التى يمكن أن يبذلها للغير شعورَ سعة وإثراء، ويجد بهجة حياة أعمق.

ومن أجل ذلك كان أحكم الناس هم أولئك الذين أحسوا أكثر من غيرهم ببؤس الأنانية ولذة الوفاق، وألئك الذين قالوا جهرة وفى قوة

«ليحب بعضكم بعضًا!». غير أن أكبر عيوبنا أن يبقى ذلك القانون حرفًا ميتًا، وأن يصبح الحب وكأنه محصور فى زمرات جزئية إذا تعداها انقلب قلة مبالاة وازدراءً أو كراهية: تكون الأسرة متحدة، ولكنها تنهض لمعاداة أسرات أخرى؛ وتكون المدينة متحدة ولكنها تصاول مدنًا أخرى؛ ويجمع الوطن شمل أبنائه، ولكنه يدفع بهم إلى مناهضة أوطان أخرى؛ ويحث الدين أنصاره على المحبة، ولكنه يحثهم أيضًا على كراهية الأديان المجاورة أو ازدرائها.

وحتى حين يوجد من الناس من يستطيعون أن يتحرروا من جميع هذه الأفكار التى تقضى على نزوع الإنسان إلى الإنسان، وحتى حين لا يطمحون إلا إلى محبة الإنسانية بأسرها، يتساءلون ما عسى أن يصنعوا لكى تكون مثل تلك المحبة شيئًا آخر غير صيغة لفظية مفرقعة خاوية. قال لى أحد أساتذتى فى مدرسة المعلمين، وهو واحد من أكرم من عرفتهم من الناس، وهو الأستاذ «روه» Rauh(١)، قال لى يومًا: «تلك الشعوب وأولئك الناس الذين يعيشون فى الطرف الآخر من العالم، والذين لا أعرفهم إلا بالكتب، ماذا ينبغى أن أفعل لأحبهم حبًا لا يكون لفظيًا؟ وهل من سبيل إلى تصور مشاركة بينهم وبينى، وبينهم وبيننا؟».

هذه المشاركة الروحية ينشئها العلم ـ كما رأينا ـ وينشئها دون جهد ومن أول مرة. يستطيع العالم أن يقول للحقيقة التى أقامها

---

(١) «روه» (١٨٦١ – ١٩٠٩) فيلسوف أخلاقى فرنسى؛ كان لتعليمه ووكتبه أثر عميق؛ سعى إلى بناء مذهب قائم على التجربة الأخلاقية. ـ المعرب.

راسخة الأركان، سواء أكانت هينة أم جليلة: «اذهبى!». والواقع أنها تجتاز الفضاء، وتمضى محلقة فوق جميع الاضطرابات الناشئة عن تصادم المصالح والأهواء، حتى تجد هنالك فى الطرف الآخر من الكوكب فكرًا آخر يحسن لقاءها ويفهمها ويجعلها له مذهبًا: وعلى هذا النحو يقوم الاتحاد الذى كان يبدو أول الأمر مستحيلاً، وعلى هذا النحو يستطيع العالم أنْ يتذوق بهجة الشعور بأنه كان من صناعها: فهو رجل الإنسانية فى مهمته المهنية التى يؤديها كل يوم.

ولا يذهبنَّ أحد إلى الاعتراض بأن عددًا من يعرفون الحقائق العلمية، حتى فى جملتها، لم يزل قليلاً. إن من الحق المؤسف أن نجد حتى فى بلادنا الغربية أن عددهم قليل، وأننا نترك شطرًا كبيرًا من النوع الإنسانى فى جهل تام بما هو فى نظرنا جوهر العظمة عند الإنسان الحديث. إن مهمة الشعوب الممتازة أن تنشر كنوز الحقائق المكتسبة فى أرجاء العالم. ولكن العالم إنما يقوم بمهمته حين يقيم قانونًا أو علاقة على نهج يقبله الناس جميعًا. والجهد نفسه الذى يتكلفه لكى يكون لبرهنته قيمة كلية يقتضى رغبة فى الاتحاد العام؛ إن مباهج أعظم مشاركة روحية إنسانية هى حظ من يبحث.

أينبغى أن نتحدث أخيرًا عن مباهج الحرية؟ لقد رأينا أن العلم لا ينمو إلا فيها وبها. أهناك حاجة إلى أن نبسط القول فى إثبات أن النمو فى الحرية هو نمو أيضًا فى البهجة؟ أعرف أنه قد وجد من الناس من امتدحوا حلاوة الإذعان والاستسلام. ولا أريد أن

أناقش من يجدون السعادة فى خذلان الذهن، وأحب أن أدعهم فى سعادتهم الهزيلة. ولكن السعادة القوية إنما هى تلك السعادة المصنوعة من نمو قوتنا الجوهرية نموًا حرًا، وإن الداء الوحيد الذى لا دواء له هو الذى يوقف وثبة الذهن، فالشخص الذى يقف على عتبة مشكلة من المشكلات ويقول للفكر: «لن تدخل!» يلبسنا مذلة هى أشنع الآلام.

ورد فى كلام ديكارت عبارة تبدو لى دائمًا مثيرة للفجيعة. فديكارت عندنا هو الصائغ العظيم لحركة التحرير التى هى روح المذهب الإنسانى؛ هو الرجل الذى أعرض عن كل سلطة، وهو الذى يأبى أن يقبل شيئًا قط على أنه حق ما لم يعرف بداهة أنه كذلك. ولكن ياللأسف! ففى إبريل سنة ١٦٣٤ نجد ديكارت هذا نفسه، إذ يتحدث عن بعض النتائج التى استخلصها من اكتشاف «جاليلى» يعدل عن هذه الحرية لتى يعرف قدرها ويحسه، ويكتب إلى الأب مِرْسن: «ولئن كنت أعتقد أنها مستندة على براهين يقينية جدًا وبديهية جدًا، فإنى لا أحب أبدًا مع ذلك أن أجاهر بها معارضًا سلطة الكنيسة». وليت شعرى أهناك ألم للإنسان أشد قسوة من هذا الذى تتضمنه هذه العبارة؛ حيث نجد التمرد يوجس خيفة حتى من التعبير عن نفسه؟ إن الرضوخ أمام برهان ما، ليس رضوخًا وإنما هو تقدم إلى الأمام. ولكن اعتقاد المرء بأن برهانًا ما هو «يقينى جدًا وبديهى جدًا» ثم عدوله عن الجهر به؛ لأن سلطة ما تعارضه، فى ذلك ألم لا يطيقه المرء ولاسيما إذا كان من يحسه يتبين مبلغ ما يتعرض له من مذلة وإهدار للكرامة الإنسانية فيه.

وإذا كان العلم يزيل جميع ما يوجد أمام الفكر من عقبات، وإذا كان يجعل من الحرية قانون نموه وتقدمه، فهو قد خلصنا من أسوأ الآلام، وجلب لنا أرفع بهجة: لأنه لا شىء يستطيع أن يثير حماسة الذهن مثل شعوره بأن أمامه فضاءً لا محدودًا، وأنه لا شىء يستطيع أن يحطم وثبة الفكر.

***

لم أنظر فى المسألة حتى الآن إلا من وجهة نظر العالم. ولكن العلم إنما يجلب للإنسانية مع الحرية ذلك الشعورَ بالثقة الذى هو ثمرة له. لقد أوضح «لانجفان» هذا الأمر: وأظن أنه كان فى بيانه مصيبًا غاية الصواب.

ولنذهب مع «دور كايم» حتى نصل إلى الصور البدائية للحياة الدينية. العالم كالمغمور فى تلك القوة اللاشخصية الهائلة التى لا اسم لها وهى «المانا» (le Mana). هى قوة يُخشى بطشها، لأن من يتصل بها دون أن يتخذ الاحتياطات الملائمة يصاب بصدمة تعقب المرض أو الموت. وحينئذ يلتمس الإنسانُ السبيلَ إلى الحصول على شىء من «المانا»؛ لكى يجسر على العمل، ولكى يطمئن قلبه. ولكنه يعيش فى خوف دائم من أن يلتقى التقاءً شاذًا، وبالتالى مشئومًا، مع هذه القوة التى تتجاوزه تجاوزًا بعيدًا، وإن كانت نافذة فيه. ويبذل الدين جهده للتخفيف من هذا الخوف، ولكنه بهذا الجهد نفسه يبسط سلطان الخوف، ويجعل له مسوغًا.

أما فى الصور الدينية التى هى أحدث عهدًا فقد حلت الآلهة الشخصية محل «المانا» اللاشخصية، وكان هذا أول محاولة من محاولات التحليل وبالتالى التفسير يجب أن لا نغفل ما لها من خطر: لأن ميزَة العلم أنه يستطيع أن يحكم بالقسطاس المستقيم على جميع الجهود الإنسانية الكبيرة. ولكن إذا كان فى هذا النحو من التشبيه[١] (الذى لم يتخلص منه العلم نفسه والذى يتكلف أحيانًا عناءً كثيرًا للتخلص منه) إذا كان فيه خير مؤقت، فهو أبعد الأشياء عن أن يعطى للناس راحة البال والأمان: لأن الآلهة إذا كانوا أحيانًا رحماء بالناس فهم أحيانًا أخرى جبارون، سرعان ما يستشاط غضبهم. ولما كانوا هم حفظة «المانا» فهى ذات بأس شديد. ولابد للمرء لكى «يهدئ» هذه القوى من أن يقدم لها ضحايا بشرية. ثم إنهم إذا كانوا يدخرون أحيانًا لمن اصطفوهم ثوابًا ونعيمًا باهرًا فهم يتوعدون غيرهم، وهم الجمع الغفير، بجميع صنوف العذاب والتنكيل المريع. فالدين ـ فى هذه المرة أيضًا ـ يعمل ما يستطيع ليعطينا الوسائل التى نتحرر بها من هذا الخوف؛ ولكنه فى هذه المرة أيضًا يبدأ بتمكين أساس الخوف: أراد التأمين فعمد إلى التخويف. وهنا جاء الروح العلمى، فنهض بمهمة التحرير النهائى. لقد هتف «لوكر يتيوس»: Prittum Graius homo I[٢] وقال:

---

(١) «التشبيه» Anhropomorphisme هو تصور الله على غرار الإنسان: كأن يقال إنه يرى ويسمع ويغضب ويرضى، أو أن له يدين ورجلين. و «التشبيه» ضد «التنزيه» الذى هو تصور الله متعاليًا عن صفات العباد . ـ المعرب.

(٢) «الرجل اليونانى أولاً!..» . ـ المعرب.

«على مرأى من الجميع رقدت الحياة الإنسانية على الأرض رقدة العار، وقد أبهظتها وطأة دين تبدّى من أجواز السماء برأس مخيف، ينذر بوعيد معلق على رءوس البشر الفانين. حينذاك قام الرجل اليونانى ـ وهو أحد الفانين ـ فكان أول من تجرأ على أن يرفع عينيه متحديًا».

أعيد القول بأن فى هذه الأبيات افتئاتا وتجنيًا، فقد سعى الدين إلى تحريرنا قبل سعى العلم. وليس كل ما فى الدين وعيداً. غير أن من الحق أن يقال إن الدين قد أقام أركان الخوف الذى حاول أن يخلصنا منه، وحتم على الناس إقامة الشعائر الدامية، وأنذرهم بالعقاب المروع، فاستحق أن يوسم بهذا البيت الشعرى القاسى:

Tantum religio Potuit Suadere malorum!. (1)

ما الواجب لعمل ما لم يستطع هو أن يعمل، أى للقضاء على الخوف؟ ينبغى حين نسعى إلى تفسير العالم أن نستعيض عما ينسب إلى الموجودات الإلهية من إرادة متقلبة مخيفة بما للقوانين الطبيعية من فعل مطرد. يقول «لوكر يتيوس»: Naturae species ratioque[٢]. وهو يعبر فى هذه الكلمات الثلاث عن روح العلم: ذلك أنه متى تم للإنسان أن لا يرى فىَّ روحيًا بمن يفكرون، وأن يعمل لكى يأتى يوم يصبح فيه الأحياء جميعًا من المفكرين؟.

إن موضوع دراساتى نفسه يجعلنى أعيش على اتصال دائب بالصور المتغيرة التى تشكل بها المثل الأعلى الإنسانى على مدى

---

(١) «كم من بلاء استطاع الدين أن يجر على الناس...»! ـ المعرب.

(٢) «ظواهر الطبيعة والعقل» ـ المعرب.

القرون. ليس منها صورة إلا ولها جمالها: تحت سقف الهيكل أو تحت رداء الفلسفة، فى «الحقائق النبيلة» للبوذية أو فى «الموعظة على الجبل»[1]، فى فكر أفلاطون أو فى فكر «سپينوزا»، قد وَجد سعىُ الناس للوصول إلى الحكمة تعبيرات مؤثرة رائعة: ولكنى لا أعتقد أن المثل الأعلى قد بلغ أبدًا من النقاء والكمال والقدرة على ملأ النفس ورفعها مثل ما بلغ فى الأخلاق الصامتة التى هى روح العلم.

(١) «الموعظة على الجبل» خطبة مشهورة ألقاها المسيح على أتباعه (إنجيل متى: الإصحاح الخامس والسادس والسابع) . ـ المعرب.

الفَصلُ الحادِى عَشر
الاعتِراض الأكبَرُ

غير أن هاهنا اعتراضًا:

قد يقال: سلمنا بأن للعلم مجاله الخاص، وهو مجال فسيح، ولكنه ليس مجالاً كليًا جامعًا، وسلمنا بأن العلم يؤلف بين النفوس، ولكنه لا يؤلف بينها إلا فى بعض المواطن. وأخطر من هذا أن ما يدعه العلم خارج طاقته هو بالضبط الشىء الذى له أكبر مساس بنا.

متى اقتصر الأمر على المادة والحركة استطاع العالم أن يقدم غذاءً طيبًا لرغبة الاستطلاع فينا. ولكن حاوِل أن تتحدث إلى العالم عن الروح أو عن أصل الإنسان، أو عن غاياته القصوى، أو عن الموت، أو عما يحدث أو لا يحدث بعد الموت، فإنك واجد عنده تصريحًا بعجزه وعدم اختصاصه، أو تهربًا من الموضوع. أليس يحل لغيره أن يتحدثوا حين يلوذ هو بالصمت؟ وإذا كان ما يتحدثون عنه هو الأمر الذى يعنينا قبل كل شىء، أليس يحل لنا أيضًا أن نطلب إليهم هم أن يبينوا لنا الغرض والطريق؟ يستطيع العلم أن يقدم

إلينا مثلاً أعلى نبيلاً مثيرًا جذابًا .ولكن كيف يستطيع مادام جزئيًا أن ينازل أولئك الذين يجيبون عن جميع المشكلات والذين يرضون جميع الرغبات؟

يردد هذا الاعتراض كل يوم، ويرد أحيانًا على ألسنة رجال لا يقفون من العلم موقف خصومة أو استرابة، يبجلونه ويولونه ثقتهم، وقد لا يكون لهم من مطلب إلا أن يتابعوه إلى النهاية، ولكنه يقف فى منتصف الطريق، فيفارقونه على مضض، لأنهم يريدون أن يسيروا أبعد مما سار، ولأنهم يحسون الحاجة إلى حقيقة أتم وإلى حكمة أوفى.

فما الجواب على الاعتراض؟

الجواب أن الحق معهم من غير شك فى قولهم: إن العلم لا يجيب عن كل شىء، وهو فى هذا مخالف للأديان والفلسفات التى تتسابق فى تقديم شتى الحلول لمشكلات لا تحصى. لننظر على سبيل التمثيل فى دين كبير من أديان النجاة كدين «مِثرا» -mithracis me الذى كاد أن يغزو العالم فيما قال «رنان». نعم إن معتنقه يجد فيه ما يرضى كل ما يتطلع إلى معرفته، يجد فيه أولاً تاريخ ربه:

ولد «مِثرا» المخلص مولدًا معجزًا؛ ثم عبده الرعاة؛ وافتدى الناس بعد أن دنستهم الخطيئة الأولى. وبعد أن قضى حياته يقاتل أمير الشر جمع تلاميذه حول مائدة مقدسة، ثم بما له من قوة خاصة صعد إلى السماء فإن أردت أن تملك الحقيقة وأن تضمن نجاتك فى آن واحد فآمِن به، وشارك فى قرابينه، واشرب الماء

الذى هو دمه، وكل الخبز الذى هو جسده. وإن شئت أن تعرف نظام الكون، فانضم إلى زمرة مريديه (mystes) تتكشف لك أسرار الخلق، أو الدوائر التى يكون فيها العالم. وإن شئت أن تعرف مصير الإنسان بعد الموت فألق سمعك تعلم أن روحك سوف تخلص من الفناء فى نهاية حياتك على الأرض، وسوف تقف بين يدى «مثرا» ليحكم فى أمرها بما آمنتَ وبما عملتَ: فإن كنت مدنسًا آثمًا خلدت فى نار جهنم، وعذبتك الشياطين، وإن كنت مطهرًا صالحًا نلت نصيبك من النعيم المقيم وبعثتَ الحياةُ فى جسدك، وكان مثواك فى السماء بجوار «مخلصك».

لا بد من الإقرار بأن مذهب «مثرا» الذى يقدم هذه اليقينيات كلها يأتى بمذهب أتم مما يقدمه العلم اليوم إلينا، ويجيب أجوبة مستفيضة على جميع ما يعنينا أن نعرف. ولكن من منا يؤمن بمثرا؟

ومَنْ مِن الناس يؤمن بإيزيس و «أوزيريس» و «ديمتر» Demeter و «برسيفون» و «قيبيل» و «أتيس» و «زيوس» و «أپولون» و «هرقليس» Herakles ؟ زعمتْ جميع هذه المعتقدات الكبيرة أنها خالدة حاسمة. وجميعها دولها وتضاءلت أمام مجهود النقد؛ وجميعها كان ينبغى أن تنجينا من الموت، وجميعها ماتت من نفسها.

ولنلاحظ أنه ليس منها معتقد إلا وفيه إغراء: يلذ للمرء أن يعتقد أن «مِثرا» أو «أتيس» قد قالا حقًا، وأنه يكفينا أن نؤمن بالفضيلة وأن نمارسها لكى يكون لنا الحق فى أن نؤمل لنفوسنا بقاءً ونعيمًا مقيمًا. ولو خلينا جهنم جانبًا (من منا يقبل سعادة لا تكون

سعادة الجميع؟) فما يطلب المرء إلا أن يقبل أديان النجاة التى تضمن سعادة لا نهاية لها. ومع ذلك فنحن لا نؤمن بها. و «الأدلة» التى ساقتها «الأرفية»[1] و «المترواقية» و «المثرائية» لا نعبأ بها اليوم إلا كموضوع من موضوعات الدراسة، ولا يخطر ببالنا أن نناقش ما لها من قيمة. لم يكن لها سند من العقل ولا من التجربة فنامت مع من آمنوا بها، وأصبحنا وإذا تلك اليقينيات التى آمن بها ملايين الناس، أفكار ميتة مرصوصة على طول الطريق البشرية.

فنحن الذين نشاهد تغير هذه الحقائق المتعاقبة، نحن الذين نراها فى التاريخ تولد وتنتصر وتموت، أليس لنا الحق فى أن نقول لأنفسنا بأن من أيسر الأمور أن تحل جميع المشكلات إذا لم يلتزم الإنسان فى حلها تلك المناهج الشديدة التى يجعلها العالم قانونه الذى لا يحيد عنه؟ أليس لنا الحق فى أن نرى أنه ليس ليقين قيمة كبيرة إذا لم يستطع أن يثبت على الزمان والمكان، وإذا بلغ من الضآلة أن يختفى بتمامه دون أن يبقى منه شىء؟ أيجب علينا أن ننتقص من مذهب؛ لأنه لا يجيب على الفور عن جميع ما يعنينا أن نعرف، فى حين أننا نرى الجم الغفير من الأجوبة المطلقة المتصلفة يسقط الواحد منها بعد الآخر فى مهاوى الإغفال والنسيان؟

---

(١) «الأرفية» Orphisme مذهب دينى نشأ بلاد اليونان فى القرن السادس قبل الميلاد؛ وينتسب إلى «أرفيوس» الشاعر القديم. وما نعرفه عن «الأرفية» إنما أتى إلينا من الإسكندرانيين، الذين خلطوا المذهب بأفكار شتى، خلعوا عليها ثوبًا مقدسًا، وجعلوها على لسان الحكماء الأوائل . ـ المعرب.

قد يعترض علينا بأن العلم هو أيضًا يشاهد انقراض كثير من مذاهبه ونظرياته. إذا صح أن الفروض تذهب وأن أكبر الفروض قد يجرى عليها ما يجرى على الجمهرة الشائعة، وأن العلم ـ كما قدمنا ـ لا يعرف إقفال باب المناقشة، إذا صح هذا فيبقى أولاً أن بعض الوقائع المحصة تمحيصًا جيدًا تبقى وتكون فى العلم أشبه بما يسمى فى الاصطلاح الحديث «بالرصيد الذهب» (encaisse - or)، ويبقى أيضًا أن النظرية الجديدة تلتئم مع سابقتها، وتشرع فى الاعتماد عليها قبل أن تتجاوزها. وإذن فحتى خطأ اليوم يقوم بدور نافع وهو أن يمهد لحقيقة الغد، وهذه بدورها تمهد لحقيقة أعلى، وهكذا إلى غير نهاية.

أما الحقائق «المطلقة» فمصيرها على العكس هو الانقراض التام. إن وحى «مِثرا» لا يتقدم إلى أنصار الدين فى صورة تغبر مؤقت عن معارف من شأنها أن تنمو وأن تتحول، وإنما يتقدم كتلةً واحدة، فإما أن تقبل أو تترك. وحينئذ لا يقصر الأمر على تركها، بل إن من يتصدون للقيام مقامها يكونون أبعد الناس عن الاستناد عليها، بل يبدأون يصب اللعنة عليها، ويعلنون أنها من عمل الشيطان: يحطمونها بالقوة ويجهزون عليها بالنسيان، ثم يزعمون هم أيضًا أنهم خالدون!...

قد يقال إن تقديم أجوبة مصيرها النسيان هو على الرغم من ذلك كله أفضل من عدم تقديم أجوبة مطلقًا؛ وَلأن نؤمن بمثرا أو بأى واحد غيره، فنجد فى ذلك الإيمان رضا وسلوى، أفضل من أن نثق بعلم لا يريد أو لا يستطيع أن يقول لنا شيئًا عن الروح ولا عن الموت ولا عن مصيرنا بعد الموت.

أعرف أن الكثيرين يقولون هذا، وأعرف أن بينهم كثيرين من أصحاب النفوس النبيلة جدًا. زد على ذلك أن عالم الاجتماع لا يدهشه أن يرى مذاهب الاعتقاد والأمل التى سيطرت على العالم قرونًا عديدة لايزال لها اليوم بعض السلطان على ملايين القلوب البريئة. ومن أجل ذلك كان كل ما شابه التعصب القديم وكل ما كان من قبيل الكراهية أو الازدراء للعقائد الإنسانية شيئًا بعيدًا عن الروح العلمية.

ولكنى وإن كنت أبذل غاية جهدى لأتحاشى إيلام أى شخص أو خدش إحساسه، أريد أن أبين لِمَ كان الإعتراض الأخير الذى يوجه إلينا، والذى يُظن أنه حاسم اعتراضًا لا ينال منا وطرًا.

نسأل أولاً: أحق أن العلم يسكت عن كل ما يمس النفس والموت وبقاء الروح بعد هلاك البدن، وبالإجمال عن جميع الأديان؟

كلا بل تغلغل العلم فى هذه المجالات فى صورة تاريخ الأديان أو علم الاجتماع الدينى. وأجاب عالم الاجتماع عن السؤال القديم: «هل الآلهة موجودة؟» بقوله: «إنها موجودة قطعًا باعتبارها وقائع اجتماعية كبيرة» وهو قد أكبّ على هذه الوقائع فدرسها كوقائع لا تحدوه إلا الرغبة فى الفهم، فاستعيض عن التاريخ الجدلى الذى شاع عند فلاسفة القرن الثامن عشر، وعن التاريخ الشعرى الذى برّز فيه «رنان»[1]، بتاريخ قام على مهل، مشبعًا بروح ومناهج علمية

(١) «رنان» Renan من أشهر العلماء والكتاب الفرنسيين فى أواخر القرن التاسع عشر، نشر بحوثًا مرموقة عن «أصول اللغات» وعن «تاريخ أصول المسيحية»؛ وله مؤلفات كثيرة مشهورة منها «محاورات وخطب فلسفية» و «مستقبل العلم؟... طبع مذهبه الفلسفى بطابع وحدة الوجود والمثالية، وبسطه فى صورة شعرية بالغة الروعة والجمال. ـ المعرب.

محضة، فلم يقنع بأن أخضع لبحوثه المسيحية واليهودية بالتناوب، بل أخضع لها أيضًا المعتقدات والشعائر عند جميع البلاد وفى جميع الأزمان حتى الصور الأولى للحياة الدينية.

فإذا المعتقدات المتصلة بالنفس وبالألوهية وبالشعائر وببقاء الروح وقد أصبحت اليوم ظاهرات يدرسها العالم بتمام الهدوء والصفاء كما يدرس، فى مجالات أخرى الظاهرات الطبيعية أو البيولوجية. وإذا صح لبعض الناس أن ينازعوا اليوم فى النتائج الأولى لهذه الدراسة فإن أحدًا لم يعد يجسر على المنازعة فى مبادئها ولا فى مناهجها.

فلا يقولنّ أحد إن العلم يعمد إلى نوع من التشيّع، فيُخرج من مجاله الخاص كل ماله مساس بالحياة الدينية: بل إنه ليرحب بأن يجعلها موضوع بحوثه؛ وهو يرى فى الأفكار المتصلة بالروح وبالمعجزات وببقاء الروح «آراء جمعية» representations collectives يسعى إلى إدراك طبيعتها وتطورها: ولا يخطر بباله أبدًا أن يلتمس فيها مادة للسخرية أو للمناظرة والجدال، وإنما يلتمس فيها معلومات عن تاريخ الفكر.

حق إن هناك فرقًا بين أن ندرس العقائد المتصلة بالروح وببقائها وبين أن نقطع بأن هناك روحًا أو بقاء. وأفسر عن طيب خاطر بأن العلم يأبى الإجابة عن أكثر المشكلات التى بتّت فيها العقائد أو المذاهب، صحيح أنه قد يقع للعلم أن يصدر حكمًا؛ فواضح أنه مثلاً ينكر «المعجزات»: أولاً لأن الوقائع المعروضة تحت هذا الاسم ليست

محققة وفقًا للقواعد العادية للمنهج الوضعى؛ وثانيًا لأنها لو كانت كذلك لكان كل الجهد العلمى عبارة عن إخضاعها لفكرة القانون الطبيعى. ولكن العلم يسكت عن مسائل أخرى: فلو سألته رأيه فى الروح أو فى البقاء بعد الموت لما أجابك بشىء.

أقول إنه لن يجيب:لأنه لا بد لى هنا أن أدفع الالتباس. زعم البعض حينًا أن «المادية» إما أن تكون مسلمة من مسلمات البحث العلمى إما نتيجة من نتائجه. ولكن الواقع أن المادية لا تعدو أن تكون مذهبًا ميتافيزيقيًا. وليس من شأن العلم من حيث هو علم أن يحاربها أو أن يناصرها. وحسبه من عمل أن يتبين طبيعة المادة وعلاقاتها بالظاهرات البسيكولوجية دون أن يتشيع لمذهب قد يؤثر فى بحوثه المستقبلة.وإذن فقد صح من جميع الوجوه أن العلم يقف اليوم بإزاء بعض ما أثارته أفكار الناس من مشكلات، موقفَ الصمت والتنحى عن التصريح بشىء ما لم يكن قد تحقق من معاينته كما ينبغى.

ولكن أيلزم أن يكون صمتُ اليوم صمتًا أبديًا؟ أيلزم من عدم الاهتداء، فى بعض المواضع، إلى حل من الحلول، أو من عدم الإهداء حتى إلى الجانب الذى يمكن أن يُلتمس فيه ذلك الحل، أن لا نبحث عنه وأننا لن نهتدى إليه فقط؟

***

نعم هنالك فكرة عن العلم هزيلة مستحيية تقضى علينا بهذا العجز: وهى الفكرة التى ترسم حدودًا لمجال بحوثه وتقول له: «هنا

مجالك» وتمنعه مقدمًا من أن يخرج منه أبدًا. ولكن هناك فكرة أرفع وأشد اعتزازًا، وهى تأبى أن نسلم بأن مشكلة كائنة ما كانت يمكن أن تفلت مبدئيًا مما للعقل والتجربة من سلطان متزايد.

فأى هاتين الفكرتين كانت أخصب؟ أقرأ فى بعض مؤلفات «أوجست كمت» أن العلم يمكن أن يعيّن أشكال الكواكب وأبعادها وحجومها وحركاتها، ولكنه لن يستطيع «أبدًا أن يدرس بأية وسيلة تركيبها الكيميائى». يقول: «أبدًا»، ولكنه ما كاد ينطق بهذه الكلمة حتى رأينا علمًا جديدًا يكذب كلامه تكذيبًا بيِّنًا. وأقرأ فى الكتاب نفسه الذى أشاد فيه مسيو «ترمييه» ببهجة المعرفة قوله: «أكبر الظن أننا لن نعرف أبدًا كيف تكونت الأرض وهل هى سديم من السدم الصغيرة المركزة فى كتلة من الأجسام الصغيرة الصلبة معلقة بعضها ببعض. وأكبر الظن أننا لن نعرف أبدًا ما الحالة الطبيعية لنواتها الداخلية..» ويسطر صفحة بتمامها يحصى فيها هذه المشكلات التى لا بد أن تتحطم عليها جهود العلم مهما بلغت. وتعود كلمة «أبدًا» ويسمع لها رنين، وكأنها حكم لا نقض له ولا إبرام! ولكن فى الوقت نفسه الذى يضع فيه مسيو «ترمييه» هذه الحدود كلها، بزغت بواكير طرائق لحل المسائل التى ظن بحسن نية أنه لا سبيل إلى حلها.

وإذن فعلام يستند الذين يصرحون بأن المشكلات المتصلة بالروح والموت والبقاء ستظل دائمًا عند العلم ألغازًا لا سبيل إلى حلها؟ ومن ذا الذى يقول لنا إن العلم سوف لا يتناول جميع هذه المناطق التى لم

تزل مظلمة، فينشر عليها النور، إما بالإجابة عن الأسئلة الموضوعة، وإما ببيانه أن من الواجب وضعها على نحو آخر مخالف للنحو الذى وضعت عليه من قبل.

قد يقال إن الواقع أننا لا نرى بعدُ أى جهد فى هذا السبيل. وإنا نسلم عن طيب خاطر بأن المحاولات التى بذلت تحت اسم «علم الأرواح» Spirisme فيها شىء يدعو إلى التشجيع. وأكبر الظن أن هذا الخطأ المشئوم كان مما ساعد على نشر الفكرة بأن العلم ينهج سبيل الحكمة بوقوفه من نفسه على عتبة بعض المجالات. ولكن من حيث إن «علم الأرواح» لا يعدو أن يكون «كار يكاتورا» للعلم فقد لا يخلو من جرأة أن نأخذ من فشل الأول حجة على فشل الثانى.

والواقع أن العلم إذا لم يكن قد صاغ أى جواب عن جميع هذه المشكلات التى تبتّ فيها المذاهب والعقائد، فيبدو أنه فى طريقه إلى تغيير مفروضاتها(١) تغييرًا قويًا. إن الذى كان يسود جميع الآراء القديمة المتصلة بمدة الوجود الإنسانى إنما هى نفس فكرة زمان مطلق: ولكن ما مصير هذه الفكرة الميتافيزيقية غداة التقدم الذى غيّر تغييرًا عميقًا نظرتنا الوضعية إلى الزمان؟ والذى كان يسود جميع المناقشات المتصلة بالعلاقات بين المادة والفكر إنما هى طريقة قديمة مجملة فى تصور المادة: ولكن منذ ربع قرن تلقى هذا التصور من الفيزيقا ضربات شديدة بلغ من شدتها أن جعلته اليوم تصورًا

(١) donnees ـ مفروضات المعرفة هى المواد التي يشتغل الذهن عليها، والتى لا يستطيع أن يخترعها ولا أن يغيرها . ـ المعرب.

يمتّ إلى الماضى ولا يعبّر عن الحاضر، فإذا كان سابقًا لأوانه أنه نقول إننا نلمح من الآن حلاً، فليس من الجرأة أن نقرر بأن تبدل أحد العناصر الأساسية للمشكلة إنما هو تبدل يتناول المشكلة القديمة بأسرها. وأخيرًا إن نفس النظرية التى بسطها «لانچڤان» فى العام الماضى عن معنى «الموضوع الفردى» objet individualiste، هذا المعنى الذى يبدو لنا غاية فى البساطة، والذى نرى العلم بسبيل تغييره تغييرًا عميقًا جدًا، قد تُغيّر نفس مفروضات عدد كبير من المسائل التى حلتها قبل الأوان فلسفةٌ لم تكن تنظر إلى الوجود إلا من زاوية الفردية.

* * *

أعلمُ حق العلم أن تغيير مفروضات مشكلة من المشكلات ليس معناه حلها؛ وسأحتاط لكى لا أتخيل حلولاً قد لا تستند إلى شىء فى الآونة الحاضرة ولكن تقدم الفيزيقا وما استتبعه من انقلاب فى آراءٍ كانت صميم الحلول الميتافيزيقية العتيقة، أليس فيه ما يكفى لإثبات أن العلم ليس مقضيًا عليه بديًا بالعجز أمام مشكلة ما؟ كلا لا ينبغى على العلم أن يعدل عن «التماس أصل الكون ومصيره» كما خيل إلى الوضعيين. ولا ينبغى عليه أن يعدل عن إدراك العلاقات التى تربط بين المادة والفكر. ولا ينبغى عليه أن يعدل عن معرفة الموت ما هو على التحقيق وما مدى مساسه بالفكر. ولكن يستطيع العلم ويجب عليه أن يقول: «لا نعرف فلنبحث!» حيث يقول غيره منذ قرون «لا نعرف، فلنؤمن».

أفى التكلم بمثل هذا الكلام، أى الاعتراف بالجهل مع التصريح بأنه مؤقت، والعمل على القضاء عليه، ما يفيد الاقتصار على حكمة جزئية هزيلة؟ كلا بل على العكس، إنه يفيد التصريح بأن الحكمة الصحيحة هى تلك التى تريد دائمًا أن تزيد وأن تتفتح لها الآفاق. وليس فى ذلك الكلام ما يحد من المثل الأعلى الإنسانى، بل فيه ما يفتح الأبواب كلها لجميع الآمال.

ولكن سيقول المتعجلون وقليلو البصر إن كل هذه الكشوف الكبيرة ستأتى بعدنا وقد تكبدنا عناءها دون أن نقتطف من ثمراتها شيئًا.

ويشبه هذا الكلام جملة كثر ذكرها: «سيجدون السبيل إلى أن لا يموتوا، وسيكون ذلك بعد أن أكون أنا قدمتّ»! ولكن فيم الاعتراض؟ إنه النصيب المقسوم والحظ المقدور على جميع من يطلبون الحقيقة أن يعملوا لمن يجىء بعدهم أكثر مما يعملون لأنفسهم، أينبغى أن نرثى لحالهم؟ أليس لتضامن الأجيال، هذا التضامن الذى يجعل منا صناعًا غير مغرضين نعمل لسعادة من يجيئون بعدنا، أروع وأوقع من الأنانية التى تريد أن تحبس أحلامنا بين الحدود الضيقة التى تحد المصير الفردى؟ ومن يدرى؟ فقد يستطيع العلم نفسه أن يرينا يومًا أن مساهمتنا مقدمًا فى مصير من يأتون بعدنا، وأن بثنا روحنا فى روحهم وحياتنا فى حياتهم، ربما كان آخر الأمر وسيلة من الوسائل التى نذود بها الموت عنا.

الفَصلُ الثَّانى عَشر
الملحمة الإنسانيّة

قلت فى بدء هذا البحث إن مثلاً أعلى خليقًا بهذا الاسم يجب أن يكون قادرًا على أن يثير الحماسة، وأن يحرك الهمم، وأن يأسر الألباب. وأود أن أسأل فى الختام أى مثل أعلى يستطيع بهذا الصدد أن يكافئ المثل الأعلى الذى يتضمن الإبداع العلمى، وأى مجال أبعد منه آفاقًا يمكن أن ينفتح للناس المتعطشين إلى التضحية وإلى الشعر والأمل.

وليس معنى هذا أنى غافل عما انطوت عليه النظريات السابقة من جاذبية وسحر: خلق اللّه الإنسان، وجعله على صورته، وفضّله على العالمين. وكانت الخطيئة وأصبح الإنسان بها من الخاسرين. ولكن لا تزال منزلته فى مركز العالم، وكأنه نصب ملكًا على الخلق أجمعين. وجاء «مخلص» فكفّر عن سيئات الإنسان، وجعل مصيره الأعلى أن يذهب ليلقى ربه الذى علمه الحقيقة الأزلية وكاشفه بالعدل الخالد.

ولا محل للعجب من أن أمثال هذه الأفكار، مهما يخالطها من شوائب، تروق الناس وتجد عندهم آذانًا صاغية.. لسنا نحن الذين نريد أن نحط من قدر أى جهد إنسانى عظيم يُبذل من أجل الحق ومن أجل العدل. ولسنا نحن الذين نتازع فى أن أديان النجاة جاءت آية شاهدة على التقدم البديع الذى بلغته وفاقتّ به الأديان الزراعية agraires القديمة التى ورثتها. ومادام العلم قد شرع لنفسه قانونًا وهو أن يفهم كل شىء، فليس لنا من مطلب إلا أن نحكم بالعدل على العقائد التى لا ندين بها.

ولكن ليسمح لنا على الأقل أن نعارض هذه النظريات القديمة بالنظرة التى يوحى بها إلينا العلم منذ الآن.

لم يَعُد الإنسان مستويًا على العرش وسط العالم، ولم يعد مفضّلاً على العالمين. وليست الأرض فى مركز المنظومة الشمسية ولا هذه المنظومة نفسها فى مركز الكون. وما المجرة إلا واحدة من بين جحافل عديدة من الكواكب انتظمت فى الفضاء على ملايين السنين الضوئية. وما الشمس التى قدسها كثير من الشعوب إلا وحدة تافهة، وما الأرض إلا جزىء ضئيل وسط هذه الجحافل التى تشتمل على مليارات الكواكب. ومع ذلك ففوق هذا الجزىء، ومنذ مليارين من السنين على وجه الاحتمال، ظهرت الحياة، وخرجت صور ومُثُل أصبح أحدها مثال الإنسان.

خيّل إلى الناس أن أجدادنا فى العهود السحيقة من أواخر الزمن الثالث[١] أو أوائل الزمن الرابع[٢] كانوا ملوك العالم. ولكن

---

(١) l'age tertiaire: ابتداء ظهور أنواع الحياة الحديثة من نبات وحيوان وبدء ظهور القردة والثدييات الراقية.

(٢) l'age quaternaire وهو العصر الجيولوجى الحاضر: ظهور الإنسان مع حضاراته القديمة.

يا للأسف إنهم لم يستطيعوا إلا بجهد بطيء شاق أن يرتفعوا شيئًا فشيئًا عن مستوى سائر الأناسى القريبة من القردة. ما الأرض التى يعيشون على ظهرها؟ إنهم لا يعلمون. ومَنْ أنفسهم؟ إنهم يجهلون. صرفتهم عن ذلك مشاغل العيش، واتقاء البرد والجوع، وصد عدوان الحيوانات الأخرى. جهلوا القوانين، بل جهلوا فكرة القانون نفسها، وساور خيالهم القلقُ والفزع، فتوهموا الدنيا مملوءة بالقوى المجهولة والإرادات المتعسفة المستبدة. وأخذ الخوف، وهو ابن الجهل، يستحوذ على نشاطهم القلق المضطرب.ومع ذلك فقد بزغت من لب هذه الحقيقة المتواضعة الملحمةُ الإنسانية الكبرى: شرع الإنسان يتحرر بالفكر.

الفكر هو الذى أوحى بصنع تلك الأداة الأولى التى نستطيع اليوم بفضلها أن تنشئ من جديد مصير أجدادنا. وفى حين بقيت أداة «الشنميزى» منثلمة، تقدمت أداة الإنسان فدقت وتنوعت، لأن المشاهدة والتفكير قد هدَيا أوائل المخترعين. وقد رأينا أن هذه الروح نفسها، روح المشاهدة والتفكير، قد انبثت حينًا فى السحر نفسه وفى الأديان، وقد يجد الباحث فى ثنايا بعض عقائد مهجورة الآن من جميع الناس، شيئًا يؤذن بالعلم ويمهد له. وأخيرًا خرجت فكرة القانون الطبيعى من هذه الجهود البطيئة، فوُجِد السلاح القاضى على الخوف القديم، والمعين على فتح العالم.

فتح شديد العناء! فبعد الومضة الأولى التى أضاءت شطرًا من عالم البحر المتوسط، تقهقر العلم أمام الموجة الصوفية التى جرفت

الإمبراطورية الرومانية، فأضحى خيطًا رفيعًا ضائعًا فى الغابة الكلامية المدرسية. ولكن جاء عصر النهضة بفتنته، فعاد العلم إلى الظهور أكثر تألقًا وأشد إقدامًا مما كان من قبل. وإذا بنا فى عهد «كپرنك»[1] و «جاليلى» و «كپلر» نشهد تلك الإنسانية نفسها التى كانت فيما مضى مكبة على الأرض، باحثة فى قلق عن سبل العيش، وقد قذفت بنفسها، تبتغى أن تفتح السماء. وانهزمت الكواكب، وسارت تحت لواء القانون الكبير الذى صاغه «نيوتن»[2].

أهذا كل شىء؟ كلا! بل مضى العلم قدمًا دون أن يقف عند هذه الانتصارات الفتانة. وبدا عالم «جاليلى» عالمًا قد تجاوز حده، ففرقع تحت ضغط الكشوف المتراكمة. أصبحت المجرة وحدة معينة، وانكشفت للإنسان مجرّات أخرى منفصلة عنها بفضاء يقطعه الضوء فى ملايين السنين، وتجاسر الإنسان على أن يقيس تلك المجرات. ثم جاء حين من الدهر لاح فيه أن الذهن الإنسانى سيضل عن طريقه فى هذا الكون اللامتناهى. ولكن فى ذلك الحين نفسه بيّن «أينشتين» أن كل تلك المجموعة الهائلة من السدُم[1] قد احتواها

---

(١) «كپرنك» Copernic (١٤٧٣ - ١٥٤٣) عالم فلكي بولندى؛ يرجع إليه الفضل فى انتصار النظرية الفلكية الحديثة التي تجعل الراصد هو الدائر بسبب دوران الأرض، على نظرية «بطليموس» القائلة بسكون الأرض ودوران الكرة السماوية.. المعرب.

(٢) «نيوتن» Newton (١٦٤٢ - ١٧٢٧) رياضى وطبيعى وفيلسوف إنجليزى؛ أحد أساتذة العلم الحديث؛ وصاحب نظرية الجذب العام؛ وله نظريات فى علم البصريات؛ اخترع في وقت واحد مع ليبنتز حساب الأجزاء اللامتناهية فى الصغر؛ وعاون على نشر الفلسفة الروحية. ـ المعرب .

فضاء محدود: سيطر الفكر على ما كان يبدو متحديًا كل فكر، واستطاع بالمشاهدة وبالحساب أن يرتب أمور منزله.

وما هذا إلا تقدم علم واحد من بين العلوم. ولكن الذهن ألقى بنفسه فى جميع الاتجاهات ساعيا وراء الحق، ولم يخش حين شارف اللامتناهى فى العظم، أن يشارف اللامتناهى فى الصغر، متناولاً الكوكب والذرة فى آن واحد. ولكنه حين تغلغل فى العالم الذرى لم يجد فيه نسخة مصغرة من العالم السماوى، كما ظن «بسكال»، بل اكتشف فيه طرائف لم تكن فى الحسبان[٢]، ووفرة من المتنوعات أورثته أول الأمر حيرة وبلبالاً ربما تكون الكلمة هي «بلبلة» وهو الأصح . ومن هذا السلوك الجرىء الذى حمل الفكر بالتناوب من المجرة إلى الإلكترون electron انبثقت نظرات جديدة عن المكان والزمان والضوء والمادة والوجود نفسه.

وفى الحين نفسه الذى أثّرت فيه الفيزيقا ثراء لم يكن للناس عهد به، أغارت البيولوچيا على المادة الحية، وتلمس علم الوقائع الإنسانية سبيله، وانبرت جحافل من المؤرخين لدراسة الماضى، فكدسوا وقائع، وبددوا أكاذيب وضلالات وأساطير، وسعوا إلى أن يتبينوا شيئًا من منعطفات التطورات الإنسانية.

لنوازن بين إنسان اليوم الذى عاصر هذا التقدم المعجز الخارق بالإنسان الذى عاش أوائل «الزمن الرابع» وبين ذلك المخلوق الجاهل المذعور الذى كانت أقصى مطامعه أن يقدّ مطرقة خشنة من الصوان.

---

(1) nebuleuses.
(2) nouveautes imprevues.

ولنسائل أنفسنا أيوجد شىء أبدع وأعمق شعرًا وأكثر هزًا للنفس من هذا التحول الفذ المذهل، تحول الإنسان من مخلوق يرتجف إلى مخاوق يعرف؟.

إنى شديد الإعجاب بما فى «الإلياذة»(١) من تصادم الناس والآلهة وبما فى «الإنيدة»(٢) من شدة مراس الإنسان الذى يكافح وينشئ، وبما فى «ترِستّان»(٣) من قوة الحب التى لا تُغلب. وإعجابى لأن الفن كالعلم تمجيد للذهن وإبداع مبرأ من الغرض، وقوة مشاركة روحية فى المثل الأعلى. ولكنى أقول إنه ما من ملحمة مكتوبة، وما من قصيدة تشيد بالأفعال والانفعالات تعدل فى ثرائها وعمقها هذه الملحمة الرائعة التى حولت الإنسان من مخلوق ضعيف مذعور سريع التصديق إلى فاتح من الفاتحين المسالمين يُغِير على أسرار الكون.

* * *

نعم قد اختلطت باللوحة بعض الظلال: بسط الذهن فتوحه وغزواته، ولكن تخلفّت الأخلاق عنه؛ وزاد حظ الناس من المعرفة، ولكنهم لم يصبحوا أقل مما كانوابغيًا وعدوانًا: تقسيم الأرض بين الشعوب وتوزيع الخيرات على الأفراد، بل تقسيم الثقافة العقلية،

---

(١) «الإلياذة» Iliade ملحمة رائعة من الشعر اليونانى القديم، قص فيها «هوميروس» قصة طروادة (فى القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد).

(٢) «الإنيدة» Eneide قصيدة من روائع الشعر اللاتينى، قص فيها «فرچيل» أسطورة «إينوس» (القرن الأول قبل الميلاد).

(٣) «ترستان» Tristan أسطورة من أساطير القرون الوسطى الأوروبية.

مـازال هـذا كـله تـرفـرف عـليه رايـة الـعـنف والجـور.. ومن أشـنع المفـارقات أن عصـر «هـنرى پوانكاريه»[١] و «أينشتين» و «بوهـر» Bohr و «پـرّان»[٢] و «بلانك» Blanck و «لانـجـقـان» و «دو بـروى»[٣] هـو العـصـر الـذى يرى بـلادنـا الـغربيـة وقـد دنسـتهـا أول الأمـر حـرب هـى أشد الحروب شناعة، ثم دنستها سيطرة هى أشد السيطرات خسّة، وهـى سيـطرة المـال. ولـكن الـذى أود أن أكون قـد بينـته هـو أن الـعلم يتـضـمن مثلاً أعلـى لو تم لـه الـنصـر مع الـعلم لـدفع كل هـذا الـبلاء الأخـلاقى، ولاستـطـاع أن يـرد المـال إلى مـكـانه وأن يـضع الـذهن فى مـنـزلـته، وأن يـطـالب بـالـتحـرر الاقـتـصـادى، لا كـغـاية فـى ذاته، بل كـشرط لـلتحـرر الـعقـلى، وأن يؤلف بين الـناس فـى الحـرية وبـالـعقـل، بحيث ينال الجميع حظوظهم من معارك الفكر ومباهجه.

أهو مثل أعلى بعيد؟ قد يشاء المعارضون أن يعترفوا بأن العلم الحديث قد تقدم تقدمًا ما كان يبدو قبل ثلاثة قرون أكثر إمكانًا من

---

(١) «هـنرى بوانكاريه» Henri Porncare (١٨٥٤ - ١٩١٢) فيلسوف فرنسى معاصر ومن أكبر علماء الرياضة. تركت مؤلفاته الفلسفية عن «قيمة العلم» و «العلم والافتراض» وعن مناهج العلوم الرياضية والفيزيقية، أثرًا عميقًا فى مفكرى عصرنا هذا . ـ المعرب.

(٢) «پران» Perrin (١٨٧٠ - ١٩٤٤) عالم من علماء الطبيعة الفرنسيين؛ كان أستاذًا للكيمياء الفيزيقية بالسربون حتي قيام الحرب العالمية الأخيرة. صاحب بحوث مهمة عن الكهرباء وعن النظرية الإلكترونية. ـ المعرب.

(٣) دوپروى» De Bloglie عالم من علماء الطبيعة الفرنسيين المعاصرين؛ عضو فى «الأكاديمية الفرنسية»، حاصل على جائزة نوبل؛ وأستاذ بكلية العلوم بباريس، صاحب مباحث قيمة فى المادة والضوء. ـ المعرب.

التقدم الذى نتحدث عنه اليوم. وقد يسلم المخالفون أيضًا بأنه إذا بدا هدف من الأهداف بعيدًا فخير سبيل للاقتراب منه هو أن نعمل لا أن نتململ.

ولست أبغى أن أعتذر عن العلم إذ فتح لنا آفاقًا واسعة، بل ينبغى فيما أعتقد أن نشكر له يده، لأنه لم يرسم حدًا لتشوقنا إلى الحق.

أينبغى علينا بأن نسلم بأنه ما دامت كتلة الشمس صائرة إلى الفناء بنفس إشعاعها، فلم يبق أمام الإنسانية لنموها إلا بضعة مليارات من السنين؟ إن هذه الفترة الطويلة من الزمان تمد لنا فى أسباب الرجاء تهيئ لنا مجالاً طيبًا للعمل. ولكن إذا استمر تقدم المعرفة ولو على النحو البطىء المزعزع الذى كشف عنه تاريخ الماضى البعيد، ومن باب أوْلى على النحو السريع الذى جَرت عليه منذ عصر النهضة، فما أبعد المسافة التى ستكون بين إنسانية اليوم والإنسانية التى ستظهر بعد عشرة أو عشرين أو مائة مليون من السنين! وما أعجب ما سيقع من كشوف ومخترعات، وما أغرب ما سيتم من تقدم فى الفن وفى طريقة تصور المثل الأعلى ومصير الإنسانية؟

ومَنْ يدرى؟ فلعل أولئك الناس - وبينهم وبيننا من البعد ما يزيد ألف مرة على ما بيننا وبين أهل العصر الحجرى القديم - لعلهم يجدون من أيسر الأمور أن يتصلوا بعوالم قريبة أو بعيدة. ولعلهم لا

يتأثرون بذلك الحادث الضئيل الذى سيكون عبارة عن انقراض الشمس، فيؤكدوا العمل اللامحدود، عمل الفكر(١).

* * *

إنى أقف هنا عن الكلام: فربما يعاب علينا الاسترسال مع الأحلام الضافية وإطلاق العنان للمطامع المتطرفة، بعد أن عيب علينا تمسكنا بحكمة جزئية متواضعة باردة! ولكن بإزاء هذه الآفاق الواسعة التى فتحتها أمام أعيننا بواكير النجاح الذى أصابته بحوثنا الأولى، نرجو ألاّ نرى معترضًا يقول لنا إن العلم والمثل الأعلى الذى هو روحه عاجزان عن إشعال جذوة الإيمان والحب والحماسة فى النفوس. كلا إن العلم الذى يسوقنا إلى طلب الحق دون أن نقف عند حد، لا يمت بسبب إلى حكمة هزيلة أو حكمة تُعنى بالمصالح الخسيسة. وإنما هو من بين المبتدعات التى حققتها جهود الناس أكثرها ثراءً، وأشدها إثارة، وأعمقها «تدينًا»: إنه يبدل أحلامنا آمالاً ويحمله إلى اللامتناهى.

---

(١) أنظر فى «كراسات جماعة العقليين» (عدد مارس سنة ١٩٣١ ص ٨٣) خاتمة المحاضرة القيمة التى ألقاها بول بكرل: «من أين تأتى الحياة»؟ ـ المؤلف

Voir dans les "Cahiers rationalistes" de mars 1931, P. 83, la conclusion de la belle conference de Paul Becquerel: "D'ou vient la vie?"

فهرس الكتاب

الثقافة العلمية

سلسلة تعنى بتبسيط المفاهيم العلمية والتكنولوجيا وأسس نشر مبادئ مجتمعية عامة، بحيث تصبح فى متناول عامة الناس من خلال أطروحات الباحثين والعلماء المتخصصين فى فروع العلوم المختلفة، استنادًا إلى الفكر العلمى الحقيقى والبحث العلمى الجاد، الذى يكشف هذه المعلومات؛ لتكتمل مسيرة المعرفة الناتجة عن إبداع وتميز بعض المختصين فى مجالات العلوم كافة، حتى يقف المتلقى العربى على أهم ينابيع المعرفة العلمية ليتسنى له أن يتابع بهذا الوعى العلمى المكتسب أحدث النظريات العلمية وتطبيقاتها، وحتى يكتسب الأسلوب العملى والعلمى فى التفكير، ويتعرف على علاقات التفاعل بين العلم والتكنولوجيا والمجتمع والبيئة وصولًا إلى تأسيس كيان علمى يتغلغل داخل نسيج الثقافة السائدة .

ISBN# 9789779105659